سَمنون المُحِب

د / أحمد شاكر عبدالعزيز
مدرس الفلسفة الإسلامية
بكلية التربية – جامعة دمنهور
قسم العلوم الإجتماعية

سَمنون الــمُحِب

أحمد شاكر عبدالعزيز

قسم الفلسفة الإسلامية بكلية التربية – جامعــة دمنهــور قســم العلــوم الاجتماعية

البريد الإلكتروني: Waelsalah.2034@azhar.edu.eg

الملخص :

إن المحبة الإلهية هى النغمة الجديدة التى أدخلها سَــمنون فــى التصــوف الإسلامى. وهذه الفكرة قد جاء بها الكتاب والسُنة واتفق عليها سلف الأمــة، وجميع مشايخ المعرفة وعموم المسلمين حيث أكدوا على أن الله يحب ويحب وهذا ناطق به الكتاب والسُنة.

وتمثل المحبة عند سَمنون قمة الطاعات، بل يجوز أن يوصل الله تعالى العبد فى محبته إلى درجة ترتفع فيها عنه مشقة أداء الطاعات، لأن مشقة الأمــر تكون على مقدار المحبة، وكلما كانت المحبة أقوى كانــت مشــقة الطاعــة أسهل.

بل لا شئ يستحق أن يُحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبوداً وحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها أو علــى المنيبين إلى الله والتوابين إليه أو المطمئنين بذكره أو المحبين له. فهذا كلــه يتضمن محبته وما لا يُحب ممتنع كونه معبوداً ومطمأناً بذكره. فإن المحبة هى لُبْ عقيدة المؤمن وشعار أصبح دستوراً عند أهل الذوق.

نظرية المحبة الإلهية عند سمنون تمثل التصوف السنى فى أبهــى صــوره وأرق معانيه، فمحبة سمنون لم تكن محبة حلول واتحاد، لم ولن تعبر عــن فناء وجود السوى، وهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، وأنه مــا ثــم غير الله. فكلنا اليوم نرى ظاهر براق خداع على طــرف اللســان محبــة وحلاوة، والباطن خراب وسم قاتل، فنرى ظاهر (القــول) يخــالف بــاطن (الاعتقاد)، فهناك من يؤدى فروض الاسلام من صلاة وصــوم...إلخ فــى

الظاهر وفى الباطن تسويف وبطالة وحقد وغل وكراهية، فأين المحبة؟! المحبة عند سَمنون هى تطابق بين الظاهر والباطن، السر والعلن، فينظر كأنه بمثابة النظر لا الناظر؛ ويسمع ويعى كأنه بمثابة السمع والوعى لا السامع والواعى؛ ويتكلم كأنه بمثابة اللسان لا المتكلم، إنه يا سادة عزف عن الدنيا فغمر قلبه نور المحبة الإلهية، فكان ما غاب منه بمنزلة ما يشاهده.

الكلمات المفتاحية: سَمنون- البقاء والفناء- المعرفة- المحبة- المحبة الإيمانية.

Fattening love

Ahmed Shaker Abdulaziz
Department of Islamic Philosophy, Faculty of Education - Damanhour University, Department of Social Sciences
Email: Waelsalah.2034@azhar.edu.eg

Abstract:
Divine love is the new tone Simnon introduced into Islamic mysticism. This idea was brought by the Qur'an and Sunnah and agreed upon by the nation's predecessors, all the sheikhs of knowledge and the general population, as they affirmed that God loves and loves and this is what the Qur'an and Sunnah speak of.
For Samoon, love is the height of obedience, but it is permissible for God Almighty to connect the servant in his love to a point where the difficulty of performing obedience is higher than him, because the hardship of the matter is on the scale of love, and the stronger the love, the easier the hardship of obedience.
Rather, nothing deserves to be loved for its own sake of absolute love except God alone, and this is part of the meaning of being worshiped and where the Qur'an came to command to worship and praise its people or to those who repent to God or those who are assured of His remembrance or those who love Him. All of this includes his love and what he does not like, who refrains from being worshiped and reassuring about his mention. Love is the core of the believer's creed and a slogan that has become a constitution for people of taste.
The theory of divine love for Samnon represents Sunni mysticism in its most brilliant and tender meanings, for Samnun's love was not a love of solutions and union, and it did not and will not express the annihilation of the existence of anything other than anything. So all of us today see an apparent shining deception at the tip of the tongue, love and sweetness, and the inside is a devastation and the mark of a murderer, and we see the apparent (saying) that contradicts

the inner (belief). There are those who perform the duties of Islam such as prayer and fasting ... etc, on the outside and in the inside there is procrastination, unemployment, hatred, prejudice and hatred. Where is love ?! Love, according to Samnon, is a correspondence between the outward and the inward, the secret and the open, so it is seen as if it is like looking rather than looking. He hears and is aware as though it is hearing and awareness

Not the listener and the conscious; And he speaks as if he is like a tongue and not a speaker, that, gentlemen, he shied away from the world and filled his heart with the light of divine love, so what he missed was like what he saw.

Key words: Fatness - Survival And Mortality – Knowledge - Love - Faithful Love.

المقدمة

. إلى الله أفزع من كل ريثٍ وعجل وعليه أتوكل فى كل سؤال وأمل، وإياه أستعين فى كل قول وعمل. يروى عن النبى أنه كان يقول فى دعائه : "اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد.

فإن موضوع بحثى هو سَمنون المحب، فمن يكون سَـمنون؟ ولمـاذا ارتبط اسمه بموضوع أو بمسألة المحبة؟ وما كان مستغرب منى وهو: هل تتحول فطرية الحب إلى مسألة وإرتباط بشخص أو فـرد؟. وهـل المحبـة مكتسبة؟ أم ذاتية مجبور عليها الإنسان؟!. قالت قطعة من الثلج – وقد مسها أول شعاع من أشعة الشمس فى مستهل الربيع – : "أنا أحب، وأنـا أذوب؛ وليس فى الإمكان أن أحب، وأوجد معاً: فإنه لا بد من الإختيار بين أمرين: وجود بدون حب، وهذا هو الشتاء القارس الفظيع، أو حب بـدون وجـود، وذلك هو الموت فى مطلع الربيع!".

فاعتقد أن الجميع مجبول على الحب والتكامل والاتصال مع الآخرين بإعتبار أن الحب أساس الوجود واحساس تنتظم من خلاله العلاقات الانسانية بصفة عامة والمذاهب الأخلاقية بصفة خاصة. الله هو المحبوب الذى يحبه العبد ويناجيه ويستأنس بقربه ويطمئن إلى جواره، ويشاهد جماله فى قلبـه وكل ظهور فى الوجود من آثار الخالق سبحانه. بل إن الحب الإلهى، هـو سر خلق الله للعالم؛ لأنه تعالى أراد أن يكشف عن سر جماله الأزلى ليظهره فى صفحة الوجود ليكون دليلاً عليه. (١)

وصار الحب من مجرد شعور وإحساس إلى نظرية لها أصول وقبول وأشخاص قائمون على تلك الأصول، فوجد الصوفية أنفسهم وكلاء حقيقيون لهذه المسألة ولم ينظروا إليها على أنها شعور وإحساس فقـط بـل طريـق

(١) د/ أبوالعلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القـاهرة، ٢٠١٣م، ص٢٠٨.

ومنهج للوصول إلى الله سبحانه وتعالى، فأعتبروا ذلك الحب حقيقة واقعة اختصوا بها وعرفوا فى تجاربهم وشعروا بلذاتها، وأن لوازم المحبة من شوق وحنين وأنس ومناجاة ولذة قرب وألم بعد، إنما هى حقائق أدركوها فى مواجيدهم، وأن المحبة أمر متبادل بين الله وعبده، فالله يشتاق إلى العبد ويطلب قربه كما يشتاق العبد إليه ويطلب قربه، والله يناجى العبد ويغار عليه كما يناجيه العبد ويغار عليه.

لم يكن قبول المجتمع الإسلامى لنظرية الحب الإلهى والإعتراف بها سهلاً ميسوراً، بل ظلت المسألة منكرة معلقة زمناً بين العلماء المسلمين، مترددة بين الأخذ والرد، حتى قبل الفقهاء نوعاً من الحب لا يتجه إلى موضوع مشخص، بل إلى فكرة أو مثال يرمز إليه بموضوع محسوس، وكان هذا النوع من الحب أشبه شئ بالحب العذرى. فلما اعترف الفقهاء به التمس فيه الصوفية تأييداً لمذهبهم فى الحب الإلهى. وعن هذا الطريق اعترف الفقهاء وأوائل الصوفية على السواء بإمكان الحب الإلهى المجرد عن التشخيص والتجسيم.

وبما أن الصوفية فى جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. (١) ومن ثم أصبح الحب من أهم الموضوعات عند الصوفية ويرتبط بالإسلام عبر عنه الصوفية معتمدين فى ذلك على القرآن والسنة بحيث قدموا رؤية تتمشى مع الأصول الدينية والاجتماعية للمجتمع المسلم. لهذا فإن نظرية الحب الإلهى لها أصول إسلامية أى لها سند من القرآن والحديث وإن كان هناك أثر غير قليل من أصحاب الديانات الأخرى كالمسيحية والمانوية. والأثر والتأثير لا يعنى قبول ورفض، وإنما أرى التأثير من منظور عالمى، فليس حكراً على المسلمين، فكل الانسانية عرفت

(١) الغزالى، المنقذ من الضلال، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، د.ت، ص٤٠.

معنى الحب. فأنا لست من أنصار تتبع الأثر والتأثير لدرجة المغالاة لفرض هذا التأثير. فإن المحبة معروفى بين جميع أصناف الخلق، ومشهورة بجميع الألسنة، ومتداولة فى جميع اللغات، ولا يستطيع أى صنف من العقلاء أن يخفيها عن نفسه.

وأصبحت المحبة فى نظر الصوفية أمر مشروع ممكن، بل أمر واقع محقق، ولكنها حال ذوقية كسائر أحوال الصوفية لا نستطيع لها شرحاً ولا تفسيراً ولا نملك لها تعبيراً، هى حال تجل عن الوصف وتلطف عن العبارة. ولقد حفلت كتب الصوفية بذكر كثير من التعريفات التى أراد بها أصحابها أن يحددوا ماهية الحب – خاصة الحب الإلهى – وهذه التعريفات على كثرتها وتعدد أصحابها، تكاد تتفق أن الحب هو ان يأخذ الإنسان نفسه بالتصفية، وقلبه بالتنقية، وأن يتخلى عن الصفات المذمومة، ويتحلى بالصفات المحمودة، بحيث يرى ما لا عين رأت، ويسمع ما لا أذن سمعت، ويذوق من الحقائق والدقائق والرقائق ما لا يخطر على قلب بشر، وإنما يصبح الإنسان كذلك لأنه يحب الله، فهو يحيا فى ظله، وينهل من فضله، وهو لا يصدر إلا عنه، ولا يرد أى شئ إلا إليه، ولا يستمد أى عون إلا منه، الذات الإلهية عنده هى المنبع الأسمى لكل ما فى الوجود من آيات الحق والجمال، وهى المورد الأسمى لكل ما فى الكون من دلالات الخير والكمال.

ولم يكن موضوع المحبة فقط هو الذى دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع، وإنما المُحب الصوفى سَمنون نفسه هو الذى دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع، فهذا الصوفى البغدادى المظلوم أو المنسى من قبل الباحثين، كان سبباً رئيسياً لاختيار هذا الموضوع، فلقد استطاع أن يجعل من مسألة المَحبة عنواناً بارزاً فى تاريخ التصوف، بل جعل التصوف كله عبارة عن دور أخلاقى أو نزعة أخلاقية تحتويها المحبة، أى جعل من التصوف طابع

عالمى. وعبر سَمنون عن أراؤه فى التصوف من خلال نظرية واضحة فى الحب الإلهى حتى أنهم لقبوه "بالمُحب"[١] والحب الإلهى عند سَمنون ليس هو حب الإنسان لله فحسب، وإنما هو كذلك حب الله للإنسان، وهذا يعنى أن الحب متبادل بين الرب والعبد. وإذا كان الحب متبادلاً بين الرب والعبد، فما عسى أن يكون سبيل العبد إلى إقبال الرب عليه وحبه له؟ وسَمنون يجيب على هذا بأن سبيل العبد إلى هذا الحب هو أن يكون العبد صابراً وشاكراً ذاكراً، أما إذا كان العبد ساهياً لاهياً معرضاً عن ذكر الله، فذلك علامة إعراض الله عنه.

وظهرت نظرية الحب الإلهى فى البصرة[٢] بين جماعة الصوفية الأول. ولقد عرف ما بين تلك الجماعة، رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) وعبدالواحد بن زيد (ت ١٧٧هـ) ورياح بن عمرو القيسى (ت ١٨٨هـ). وقد عرفت مدرسة مصر الصوفية الحب بأسمى معانيه منذ القدم وخصوصاً على يد ذو النون المصرى الذى توفى سنة ٢٤٥ هـ، فقد كان محباً أفنى حياته فى حب الله، وعارفاً سلك سبيل الحق المؤدى إلى معرفة الله. ولخص ذلك فى قوله : "مدار الكلام على أربع : حب الجليل، وبغض القيل، وإتباع التنزيل، وخوف التحويل".[٣] واستكمالاً لمكانة الحب الإلهى فى تصوف ذوالنون المصرى، نسجل هنا قوله الذى يوضح لنا أساس هذا الحب القائم على الكتاب والسنة حين يقول: "من علامات المحب لله عز وجل، متابعة حبيب الله –صلى الله عليه وسلم– فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته". بل

(١) السلمى، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبه، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م، ص١٩٥.

(٢) د/ محمد جلال شرف، التصوف الإسلامى فى مدرسة بغداد، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٥م، ص٩٠.

(٣) القشيرى، الرسالة الصوفية، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، د.ت، ص١٤.

سئل ذو النون عن السفلة، فقال: "من لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه".(١)

ثم إنتقلت نظرية الحب الإلهى إلى مدرسة بغداد، وكانت بغداد عروساً مجلوة تطل على الزمان، وكان على رجال الفكر أن ينتقلوا إليها، وعلى رجال الروح أن يظعنوا نحوها. وازدادت مدرسة بغداد فى نظرية الحب الإلهى ربطها بنظرية المعرفة، إذ أول ما ينبغى على السالك السيار هو ألا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يُحب الإنسان، إلا من يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل الحب من خاصية الحى المدرك، وهنا أصبحت نظرية الحب الإلهى لها شقان: أخلاقى ومعرفى فى مدرسة بغداد.(٢) وهنا دخلت فكرة المحبة إلى قلب التصوف، لينقلب المعامل الروحى عند أقطابه الأوائل من الخوف والرجاء إلى محبة الله. ولم تعد الخشية من النار والرغبة فى الجنة حجر الزاوية فى معاملة المحبوب، بل صار الشوق والتحرق للقائه هما الباعث الحثيث لخطى الصوفى فى معارجه الروحية. وقد ابتدأت المحبة تطرق أبواب التصوف برفق واستحياء. ثم تدفق نهر المحبة بقوة مع رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) وسَمنون بن حمزة، فبعد أن عبرت رابعة حجب الخوف والحيرة والتجرد، دخلت إلى ربها من باب المحبة التى كانت أقوالها وأحوالها ترجمة صادقة لها. أما سَمنون بن حمزة، الملقب بالمُحب، فقد جعل من المحبة طريقاً إلى المولى، وكان يرى المحبة حالاً أعلى من المعرفة.

وهكذا نجد حال المحبة عند سَمنون مرتبطاً بالمعرفة وبإدراك الحقائق العليا، إذ لا تنكشف هذه الحقائق إلا للمحب الصوفى، فإذا أحب العبد معشوقه الأوحد وهو الله، أحبه الله، وكان منه بمثابة شغاف القلب فيكشف له

(١) نفس المصدر السابق، ص١٥.

(٢) د/ محمد على أبوريان، الحركة الصوفية فى الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٢٨.

عن أسرار التوحيد، ومغاليق عالم النور، فالحب هنا كما أنه قوة دافعة للترقى نحو عين اليقين إلا أنه كلمة السر وعلامة الصوفى التى تنفتح لها أبواب الحضرة الإلهية فيكتسى بأنوارها، ويتحلى بعبيرها.

إن من أهم خصائص نظرية المحبة الإلهية فى القرن الثالث الهجرى إرتباطها بثلاثة أبعاد: أخلاقية ودينية ومعرفية وهذه الأبعاد هى التى تتحكم فى مسار الأفكار التى سوف أتناولها فى هذا البحث، فإننى أتناول هذا الموضوع من البعد الأخلاقى والبعد الدينى والمعرفى وإن شئت قل الفلسفى على استحياء، وسأسعى إلى تأكيد كيف كانت النزعة الأخلاقية للمسلمين سبباً رئيسياً فى تطوير معنى الحب أو المحبة الإلهية، فإذا كان التصوف كله خلق، فلا بد أن تكون للمحبة أبعاداً أخلاقية. وهذا هو الأهم – من وجهة نظرى – فى هذه الآونة الأخيرة التى يجب التأكيد فيها على الجانب الأخلاقى. ولما كان الحب الإلهى "أساس التصوف الإسلامى وجوهره، فلقد جعله الصوفية بوجه عام وسَمنون بوجه خاص غاية الطريق إلى الله، وجعلوا وسيلتهم إليه الاجتهاد فى العبادات والمجاهدات والرياضيات .. وعبروا عنه نثراً وشعراً .. وتغنوا به .. حيث كان قوتاً لقلوبهم وغذاء لأرواحهم. من هذا المنطلق أيضاً سنتعرض لدراسة الحب الإلهى فى القرآن والسنة وهما المصدران الرئيسيان اللذان استمد منهما المسلمون عامة والصوفية خاصة منهجهم ليسعدوا فى الحياة الدنيا وليفوزوا بنعيم الاخرة، ثم بيان وتحديد مكانة المحبة الإلهية عند سَمنون والجوانب المتعلقة بها. ثم نبين علاقة المحبة الإلهية بالفناء ثم بالمعرفة. لهذا سيتكون بحثى من مقدمة وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع وثلاث مباحث رئيسية وهى كالآتى :

(١) التعريف بسَمنون المُحب وأهم أراؤه فى المحبة الإلهية.

(٢) تعريفات المحبة الإلهية وأصولها من القرآن والسنة.

(٣) علاقة المحبة الإلهية بنظرية المعرفة.

وهذه الأفكار أو الموضوعات الثلاث وجدت أن المنهج الأنسب لتناول تلك الأفكار هو المنهج الذى يحاول بقدر الإمكان أن يتجنب فكرة التأثر

والتأثير، لأنه ما من شك بأن كل إنسانية وجدت على الأرض كان لها نصيب من الحب. ولهذا حاولت أن أرسم منهجاً يحاول أن يبين ما يتفق مع الإسلام والعقائد الإيمانية، فوجدت المنهج التحليلى التركيبى والمقارن وهما الأقرب للصواب فى دراسة هذا الموضوع.

فإننى بقدر الإمكان سأحاول البعد عن دراسة التصوف كظاهرة إجتماعية فإن التصوف ليس جمعياً فقط بل هو فردى أيضاً، بل اعتقد أن الفردية الممثلة فى سَمنون وغيره هى التى رسمت الحالة الروحية داخل بلاد الإسلام. فكان غاية المستشرقين هو جعل التصوف مبدأ جمعى لكى يسلبوه عن جوهره الحقيقى وهو الإسلام، ونسبوه إلى الآثار اليهودية والمسيحية، والأديان الفارسية وصبغوه بالأفلاطونية المحدثة وهم بالتأكيد كاذبون.

ولن أفسر أشعار سَمنون تفسيراً نفسياً أو سيكولوجياً، لأن حالة الجذب والسكر فى البحث السيكولوجى تدخل فى نطاق الحالات الشاذة أو أن تكلمنا بلغة طبية ستعتبر من حالة الصرع أو فقدان الشعور المطلق أو حالات لا شعورية يتخبط فيها الصوفى تخبطاً مرضياً باثولوجياً، ولكننا نرى الصوفية فى هذه الحالة ينطقون أو يتلفظون بنظريات ميتافيزيقية وفيزيقية وأخلاقية. إن كثيراً من أرق الشعر الصوفى قد انطلق من الصوفية وهم فى حالة الشطح أو الفناء أو خلع العذار بينما يفترض فى أصحاب حالة الصرع عدم القدرة على الإنتاج الفنى أو الخلقى أو الإبداع الروحى أو الجمالى.

لهذا كان المنهج الأنسب هو منهج البحث الفلسفى، فبينما يلجأ الفلاسفة إلى العقل يلجأ الصوفية إلى الذوق لتفسير الوجود والطبيعة والإنسان. وسنرى هل سار سَمنون فى ظل الإسلام وسار بمقتضى الأصلين القرآن والسنة، أما سار بطريقة غنوصية بعيدة كل البعد عن الإسلام؟! بمعنى آخر هل بقاء سَمنون أو اختفائه مرتبط بأخذه أو عدم أخذه بأصول الإسلام؟

أولاً : التعريف بسَمنون المحب :

(أ) من هو سَمنون؟

اتفق الجميع على أنه أبوالحسن سَمنون بن حمزة الخواص قدس الله سره، من الطبقة الثانية، وكان إمام أهل المحبة، ويقال كنيته أبوالقاسم [١] إلا أن السلمى فى الطبقات يقال أنه سَمنون بن عبدالله[٢]، وأخذ عنه هذه الرواية الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد، فقال: "هو سَمنون بن حمزة، ويقال: سمنون بن عبدالله وكنيته أبوالقاسم[٣]، والهجويرى فى كشف المحجوب يرى أنه: أبوالحسن سَمنون بن عبدالله الخواص.[٤] أما ابن خميس فى "مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار" يرى أنه أبوالحسين سمنون بن حمزة الخواص[٥] وكذلك فريد الدين العطار، فى "تذكرة الأولياء يرى أنه أبوالحسين سمنون بن حمزة الخواص".[٦] والجميع يرى أن سَمنون بفتح السين ما عدا القشيرى فى رسالته [٧] يرى أنه سمنون بضم السين، وكذلك ابن الملقن فى "طبقات الأولياء" يرى أنه سمنون بضم السين على المشهور.[٨]

(١) جامى، نفحات الأنس، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٣٣٠.

(٢) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص١٩٤.

(٣) البغدادى، تاريخ بغداد، جـ٦، تحقيق / بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٢٤.

(٤) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ١، ترجمة وتعليق/ سعاد عبدالهادى قنديل، تقديم / بديع جمعه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

(٥) ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، جـ١، م١ ، تحقيق / محمد أديب الجادر، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، الإمارات، ٢٠٠٦م، ص٤٣٧.

(٦) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، جـ٢، تحقيق د/ منال اليمنى عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٤٩٨.

(٧) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٣٧.

(٨) ابن الملقن، طبقات الأولياء، جـ١، تحقيق نور الدين شريبة، مكتب الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٦٥.

ورواية أبونعيم الأصفهانى فى "حلية الأولياء" أضفت إلى تلك الروايات أنه يقال : أبوبكر بصرى.(١) ويقال أصله من البصرة، سكن بغداد.(٢) صحب السرى السقطى وأبا أحمد القلانسى ومحمد بن على القصاب. ويقال أنه مات بعد الجنيد، ولقد توفى الجنيد سنة ٢٩٧ هـ أى أن سَمنون توفى سنة ٢٩٨ هـ، إلا أن جامى فى نفحات الأنس قال: مات قبل الجنيد، وقال بعضهم بعده، أى أن الرأى الأصوب عنده هو وفاته قبل الجنيد. متأثراً برأى أبا نعيم الأصفهانى الذى قال أنه مات قبل الجنيد، ولكن الرأى الأصوب هو رأى السلمى فى الطبقات الذى قال أنه مات بعد الجنيد على الرغم من مولده قبل الجنيد. والدليل أن أحمد القلانيسى والسرى السقطى – خال الجنيد – كانا من أساتذة الجنيد وسَمنون فكانت صحبتهما لهما صحبة تعلم.

والجنيد صحب خاله السرى، ويقول عندما كنت بين يدى خالى ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر. فقال لى: "يا غلام! ما الشكر؟ " قلت: "الشكر ألا تعصى الله بنعمه". فقال لى: "أخشى أن يكون حظك من الله لسانك! قال الجنيد :"فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها لى السرى".(٣) المهم هنا أن السر السقطى عاش ٩٨ سنة وتوفى ٢٥٧ هـ أى أنه تقريباً ولد سنة ١٥٩ هـ أو ١٦٠ هـ، بحسب رواية الجنيد نفسه الذى قال: لم أر شخصاً قط أكمل فى العبادة من سرى فقد مرت عليه ثمانية وتسعون عاماً لم يضع فيها جانبه على الأرض سوى فى مرض الموت.(٤)

(١) أبونعيم الأصفهانى، حلية الأولياء، المجلد العاشر، تحقيق عبدالله المنشاوى وآخرون، مكتبة الإيمان، ط١، المنصورة، ٢٠٠٧م، ص٢٨١.

(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، تحقيق خالد مصطفى طرطوس، دار الكتاب العربى، بيروت، ٢٠١٢م، ص٤٧٠.

(٣) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٢٧.

(٤) القشيرى، الرسالة، ص٥٥، وكذلك تذكرة الأولياء، ص٥٤٨.

إذن صحب سَمنون السرى السقطى والقلانسى والقصاب صحبة تلمذة وليست صحبت زماله. وكان لفظ المناوى فى "الكواكب الدرية" أكثر تعبيراً عندما قال: "لقد أخذ سَمنون عن السقطى والقصاب والقلانسى" [١] لهذا فإن سَمنون من أقران الجنيد والنورى.[٢] فأرجح بأن سَمنون ولد قبل سنة ٢٠٠هـ بقليل وأن الجنيد ولد بعد سنة ٢٠٠ هـ بقليل، فعلى الأرجح أنه ولد سنة ١٩٨ هـ، وتوفى سنة ٢٩٨هـ بنيسا بور[٣] أى عاش ما يقرب من مائة عام.

والدليل على صدق ذلك ما حدث لسَمنون من متاعب كثيرة من "غلام الخليل" فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة، وكان الشيوخ جميعاً يتألمون لذلك. [٤] وصادف أن أحبت إمرأة سمنون على ما به فأصغى إلى كلامها الخليفة. فلما أراد أن ينطق بالحكم وقف لسانه.[٥] وهذا الغلام مفتى الخلافة العباسية تريس فقهاء بغداد على أن يقولوا للخليفة العباسى المتوكل أن الجنيد، قد تزندق هو وأصحابه. وهذا الخليفة هو أبوالفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى وهو الخليفة العباسى العاشر. ولد سنة ٢٠٦ هـ. بويع له لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ.[٦] فإذا قلنا أن محنة سَمنون والجنيد حدثت فى نفس سنة توليه الحكم فإن سَمنون سيكون لديه أربعة وثلاثون سنة وسن الجنيد ثلاثون سنة.

(١) المناوى، الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، تحقيق / محمد أديب الجادر، جـ١، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٦٣٠.

(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٣٠.

(٣) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٣.

(٤) أبوبكر الرازى، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق وتقديم د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤٧١.

(٥) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٧٦.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١١، تحقيق حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤م، ص١٦٨٠.

أما إذا ذهبنا إلى أنه صحب السرى صحبة زمالة فإن سنه سيكون ما بين ستون سنة أو أكثر، فكيف تقع امرأة بغرام رجل وهو فى سن الستين واعتقد أن هذه رواية خيالية قال بها العطار فى تذكرة الأولياء، فقال أنه توفى ٢٧٠ هـ أى أنه ولد تقريباً سنة ١٧٠ هـ.(١) فإن سَمنون قرين الجنيد، فقال الجنيد: "رأيت إبليس فى المنام كأنه عريان، فقلت له: "أما تستحى من الناس؟!" فقال: "بالله! هؤلاء عندك من الناس؟! لو كان منهم ما تلاعبت بهم كما تتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس غير هؤلاء". فقلت: "ومن هم؟ "قال: "قوم فى مسجد الشوينزى "مقبرة مشهورة فى بغداد وبها مسجداً وفى هذا المسجد يجتمع مشايخ الصوفية"، وقد أضنوا قلبى، وأنحلوا جسمى، كلما هممت أشاروا بالله، فأكاد أحرق". فانتبهت ولبست ثيابى، وأتيت مسجد الشونيزى وعلى ليل، فلما دخلت المسجد إذا أنا بثلاثة أنفس [قيل: هم أبى حمزة، وأبوالحسين النورى، وأبوبكر الزقاق]، جلوس، ورءوسهم فى مرقعاتهم، فلما أحسوا بى قد دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: "يا أبا القاسم! أنت كلما قيل لك شئ تقبله!".(٢)

(ب) صفات سَمنون:

كان سَمنون ظريف الخلق، وأكثر كلامه فى المحبة. كان رحمه الله وحيداً فى شأنه، فريداً فى أوانه، مقبولاً لأهل زمانه، وله إشارات غريبة، ورموز عجيبة، وهو فى المحبة آية، والأكابر أقروا بكماله، واعترفوا بفضائله. وقد سُمى رحمه الله لقوة محبته لله سمنون المحب.(٣) كان زاهداً عابداً قائماً، وله كلام متين فى المحبة، وله كلام فى المحبة مستقيم. (٤)

(١) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٤٩٨.
(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٣٣.
(٣) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٤٩٨.
(٤) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص١٦٧.

فقد كان ورده فى كل يوم وليلة خمسمائة ركعة، وقد جاءه رجل فقال: "لى أربعون شاه، كم أخرج عنها؟، قال: "على مذهبى: الكل؛ وعلى مذهب القوم: واحدة".(١) فإن الفقير الصادق عنده هو الذى يأنس بالعدم كما يأنس بالغنى، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر".

ويصفه الهجويرى بأنه: شمس سماء المحبة، وقدوة أهل المعاملة. كان منقطع النظير فى زمانه، وذا شأن عظيم فى المحبة. وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونه سَمنون المُحب، وأسمى هو نفسه سَمنون الكذاب!(٢) فهو إمام بالورع متصف، عارف تقر له أهل الفضائل بالفضل وتعترف، ناسك فى العرض زاهد، صوفى نفعُهُ على المُرِيدين عائد.

وهناك من وصفه بالجنون أو أنه وسوس.(٣) ولم يبينوا لماذا قيل عنه ذلك؟ لأنه وصل إلى حد تساوى الوفاء والجفاء فى المحبة، فحقيقة المحبة عنده ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر العطاء. لأن كلا هذين فى المحبة سبب، والأسباب تتلاشى فى حال وجود الأعيان، ويطيب للحبيب بلاء الحبيب. والوفاء والجفاء يتساويان فى تحقيق المحية، وحين تحصل المحبة يكون الوفاء كالجفاء، والجفاء كالوفاء. ومعروف فى الحكايات أنهم احتجزوا الشبلى فى المارستان – بتهمة الجنون – وجاءت جماعة لزيارته، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك، فرماهم بالحجارة، ففروا، فقال: لو كنتم أحبائى لما فررتم من بلائى، لأن الحبيب لا يفر من بلاء الحبيب. (٤)

ولو قيل طأ فى النار أعلم أنه رضى لك أو مُدن لنا من وصالكا
لقدمت رجلى نحوها فوطئتهاسروراً لأنى قد خطرت ببالكا (٥)

(١) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٦٨.
(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ١، مصدر سابق، ص٣٤٩.
(٣) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٦٢.
(٤) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٦.
(٥) يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٠.

وعن محمد بن حمدان قال: رأيت سَمنوناً أدخل رأسه في زرناقته [كوب تعلق على البئر للشرب منه]، ثم أخرج رأسه بعد ساعة وزفر وقال:

تركت الفؤاد عليلاً يعادوشردت نومى فمالى رُقاد[١]

هناك إذن إجماع على أنه سَمنون المحب، فلماذا سمى بالمحب ولم يسمى بالعاشق؟! يعتبر من أبرز صوفية الحب الإلهى فى تاريخ الإسلام، لأنه وهب حياته لهذا الحب، وجعله المحور الرئيسى لأشعاره التى خلفها لنا، ومن هنا عرف بسَمنون المحب. وأصبح الفيصل بينه وبين الآخرين هو المحبة فى الله، فلا يطمع فى ثواب ولا يخاف من عقاب وخلص من دنياه وآخراه، فلا يكون له مأرب غير لقاء الحبيب. فكانت الطير تسقط عن الشجر حين تسمع كلامه فى الحب.[٢]

وأصبحت المحبة عنده دليل الكمال فى الطاعة والعبودية لله وعمل دائم على رضاه، وأمل فى نجواه، هى أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح، أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر، ولا تهدأ، لأن لحنها دائم الحياة فى القلب، دائم الحياة فى الروح. أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانية، يلمسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن كما تدركها الروح. "المحب يجتهد فى كتمان محبته، وتأبى المحبة إلا اشتهاراً، وكل شئ ينم على المحب حتى يظهره".[٣]

فلقد تكلم فى المحبة بأحسن كلام. وكان سَمنون عظيم الشأن فى المحبة. وحكى: أنه كان إذا تكلم فى المحبة، جعلت قنادل الشونيزية تجئ وتذهب، يميناً وشمالاً. بل يقال إذا تكلم فى المحبة، تكسرت قنادل المسجد كلها من اضطرابها.[٤] إذن أسمى العواطف الإنسانية عاطفة "الحب" وأسمى

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٧٠.
(٢) د/ زكى مبارك، التصوف الإسلامى، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٢٧٥.
(٣) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٧٢.
(٤) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٠.

أنواع الحب هو "الحب الإلهى" فكان تعبير المحبة الإلهية هو الأليق بالذات الإلهية من وجهة نظر سمنون. ونحن نرى صواب رأى من قال لا يجوز أن نطلق لفظ العشق على العاطفة الصاعدة من العبد نحو الله أو العاطفة الحانية من الله نحو العبد للأسباب الآتية: فإن العشق لا يجوز للعبد على الحق تعالى، لأن العشق تجاوز للحد، والله تعالى ليس محدوداً. كما أن العشق لا يصح فى الدارين إلا على طلب إدراك الذات، وذات الحق تعالى ليست مدركة، والمحبة تصح مع الصفة، فينبغى أن لا يصح العشق عليه. وقالوا أيضاً أن العشق لا يتأتى إلا بالمعاينة والمحبة تجوز بالسمع، ولما كان العشق نظرياً فإنه لا يجوز على الحق، لأن أحداً لا يراه فى الدنيا. ولما كانت هذه المحبة خيرية فقد ادعاها كل واحد، لأن الكل سواء فى الخطاب، فالحق تعالى ليس مدركاً ولا محسوساً بذاته حتى يصح للخلق العشق معه، ولما كان بالصفات والأفعال محسناً ومكرماً فإن المحبة تصح للأولياء: ألم تر كيف أنه حسن استغرقت محبة يوسف، يعقوب عليهما السلام، فإنه حين وصلت ريح قميصه إلى أنفه فى حال الفراق أبصرت عيناه الكفيفتان، ولما استهلك العشق زليخا لم تتفتح عيناها طالما لم تدرك الوصول؛ وهذا شئ عجيب جداً، فواحد يربى الهوى، وآخر يترك الهوى.(١)

وهناك فريق وقف موقف وسط، ويرى أن العشق يجوز من العبد للرب ولا يجوز من الرب للعبد معتمدين فى ذلك على أن: العشق صفة المنع عن المحبوب، والعبد ممنوع عن الحق، والحق تعالى ليس ممنوعاً، فعشق العبد له جائز، ولا يجوز منه للعبد. وهناك من يرى المحبة هى العشق، فيقول المحاسبى: الشوق سراج نور من نور المحبة غير أنه يزيد على نورها. (٢) وسَمنون يمثل هذا الموقف الذى يرى أن العشق ليس بأكثر من المحبة.

(١) الهجويرى، كشف المحبوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٤.

(٢) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٥٨٧.

إذن انقسم أهل التصوف إلى قسمين: الأول يفضل لفظة العشق على الحب وهناك من رفض لفظة العشق. لأن العشق غير جائز فى حق الله بسبب مجاوزة الحد فى المحبة، والحق سبحانه لا يوصف بأنه يجاوز الحد، فلا يوصف بالعشق؛ ولا يقال أيضاً إن عبداً جاوز الحد فى محبته لله تعالى.(١) وهناك من رأى العشق ليس بأكثر من المحبة.

وأهم سبب من وجهة نظرى لرفض لفظ العشق هو أننا لم نلتق بلفظ العشق على الإطلاق فى القرآن الكريم والسنة الشريفة، بينما نجد لفظ الحب فى آيات قرآنية كثيرة وأحاديث قدسية ونبوية متعددة، أضف إلى ذلك أننا لم نجد من بين الصوفية السنيين من استخدام لفظ العشق، كما أن العشق يعنى لغوياً "إفراط الحب" وهذا لا يصح فى وصف الحق لأن الإفراط ليس من صفاته سبحانه وتعالى، كما لا يصح فى وصف العبد لعجزه عن الوصول إلى هذا فى حق الرب ولو كان لديه محصلة ما عند العباد جميعاً من محبة... لأنها لو اجتمعت لم تبلغ قدر استحقاق الله سبحانه وتعالى.

يقول القشيرى أنه سمع شيخه الأستاذ أبا على الدقاق يقول: "العشق: مجاوزة الحد فى المحبة، والحق سبحانه لا يوصف بأنه يجاوز الحد، فلا يوصف بالعشق ولو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق سبحانه، فلا يقال: أن عبداً جاوز الحد فى محبة الله، فلا يوصف الحق سبحانه بأنه يعشق، ولا العبد فى صفته سبحانه بأنه يعشق، فنفى العشق، ولا سبيل له إلى وصف الحق سبحانه لا من الحق للعبد، ولا من العبد للحق سبحانه".(٢)

أما سبب رفض سَمنون كلمة العشق، هو أن المحبة عند سمنون حال وليست مقام، فالمقام هو ما يتوصل إليه العبد عن طريق الأعمال؛ ولا كذلك

(١) د/ محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض والحب الإلهى، دار المعارف، ط٢، القاهرة، د.ت، ص١٤٢.

(٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٦١.

الحال، فهو لا يكتسب بالأعمال، وإنما هو منه وهبه إلهية يمنحها الرب للعبد؛ وبعبارة أخرى، يقول الصوفية، إن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب. (١) "المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تعرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف، فمقام كل أحد موضع اقامته عند ذلك ... والحال عند القوم معنى يرد على القلب، من غير تعمد منهم، ولا اجتلاب ولا اكتساب...، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب".(٢) فالمحبة عنده حال، يتغير وليس هناك ألفاظ وعبارات تعبر عن حال المحبة فإن: "المُحب لا يعبر عن شئ إلا بما هو أرق منه، ولا شئ أرق من المحبة، فبما يُعبر عنها؟" (٣) فكل مقام عُبر عنه إلا حال المحب. قيل: لم؟ قال: لأن الشئ يعبر عنه بألطف منه، ولا شئ ألطف من المحبة.(٤) والأحوال كالبروق عند سَمنون وكذلك ذو النون المصرى الذى سأل عن العارف فقال: كان هنا وذهب، وكذلك الجنيد يرى أن الأحوال أشبه ما تكون بلمعات البرق، وأن دوامها مجرد وهم من أوهام النفس.(٥) فإن الأحوال كاسمها يعنى أنها كما تحل بالقلب تزول فى الوقت. فلقد كتب رجل إلى سَمنون يسأله عن حاله فكتب إليه سمنون:

أرسلت تسأل عنى كيف كنت وما لاقيت بعدك من هم ومن حزن

لا كنت إن كنت أدرى كيف كنتولا لا كنت إن كنت أدرى لم أكن(٦)

(١) د/ محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض ، مرجع سابق، ص١٧٠.

(٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(٣) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٣.

(٤) المكى، قوت القلوب، جـ٢، تحقيق د/ عبدالحميد مدكور، د/ عامر النجار، الهيئة المصرية للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٣٥.

(٥) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص١٦٥.

(٦) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص١١.

أما إذا اعتبرنا لفظ الشوق بديل لكلمة المُحب، فيجعل من الشوق حال، ومن المحبة مقام، وفى الغالب تكون المحبة صفة للشوق، لأنها تعبر عن إكتساب صفة الحب من قلب العبد السالك للرب المحبوب. أو المعشوق، وأما الشوق فهو ميل إلى المحبوب فيه تعبير عن صفة الحب أو مقام الحب المكتسب. (١) وهذا يخالف ويهدم مذهب سَمنون بالكلية. لهذا كان المُحب وليس العَاشِق.

(جـ) منهج سَمنون:

لا نكاد نعرف لسَمنون آثاراً أدبية أو صوفية غير بعض الأبيات الشعرية التى قالها فى المحبة الإلهية وينظر إليها أهل الذوق والوجد من الصوفية على أنها مرآة صادقة ينعكس على صفحتها ما فاضت به نفس سَمنون من حب إلهى، وما انتهى إليه أمرها فى سبيل هذا الحب من كشف الحقيقة، ومطالعة جمال الذات العلية، وتعرف آثارها فى الأكوان. فكلماته منهج وأنشودة جميلة فى الحب، وهتافاً صادقاً رددته نفسه فى رياض القلب. فهو حب من إنسان ولكنه ليس انسانياً، بل هو حب إلهى بكل ما يدل عليه وينتهى إليه الحب الإلهى من فناء العبد فى الرب، وسيطرة المحبوب على المحب.

ونعثر لسَمنون أبيات شعرية تعطينا تعريفاً أو توضيحاً لمعنى المحبة ومعنى المعرفة، فوجدنا فى معظم أبياته انطلاق نحو ارتباط الحب بالمعرفة وكأنهما معنى واحد، ويحصلان عن طريق واحد: فكل منهما حال وهبى، وكل منهما يمتاز بأنه من الوجدانيات التى يستشعرها الإنسان فيما بينه وبين نفسه، وليس من العقليات التى يعمل العقل فيها عملاً من أعماله، أو يؤدى فيها وظيفة من وظائفه، أو يصل فيها إلى نتيجة من نتائجه. بل إن العقل

(١) د/ أبوريان، الحركة الصوفية فى الإسلام، مرجع سابق، ص١٣٨.

سواء فى الحب أم فى المعرفة معطل تعطيلاً تاماً عن القيام بأى مما يقوم به فى الأحوال العادية التى ليست من أحوال الصوفية فى شئ .

يقول سَمنون[١]:

أحن بأطراف النهار صبابةوبالليل يدعونى الهوى فأجيب

وأيامنا تفنى وشوقى زائدلأن زمان الشوق ليس يغيب

فأول خطوة فى منهج سَمنون التأكيد على الالتزام بالتكاليف والطاعة ليكون ذلك سبباً لترسيخ المحبة. ثم ينبغى أن يتوافر فى المحب أن يطلق نفسه من قيود العقل، فالمحبة لا تأتى عن طريق العقل، وليس لإرادة الإنسان أو قدرته فيها مدخل، ولكنها تأتى عن طريق القلب، وإرادة الله وقدرته هما اللتان تقذفانها فى هذا القلب.

فيقول[٢]:

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسازمان إذا أمضى عزاليه أُحتسى

فكم غمرة قد جرعتنى كؤوسهافجرعتها من بحر صبرى أكؤسا

تدرعت صبرى والتحفت صروفهوقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى

خطوب لو أن الشم زاحمن خطبهالساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

أستطيع أن أقول بكل ثقة أن ألفاظ سَمنون تؤكد على رقة شعوره ودقة الحس وسمو العاطفة التى سيطرت على نفسه سيطرة قوية لم يكن لسَمنون ليستطيع إفلاتاً منها أو منصرفاً عنها، فإذا هو يقضى حياته مقبلاً على محبوبه، فانياً عن نفسه فيه. وهذا يؤكد الخطوة الثانية فى منهج سَمنون هو دائماً يعاتب نفسه ويوجه لها اللوم والعتاب، لذلك لم يتدرج فى المحبة من حب حسى إلى حب ربانى وهكذا، فكان يأخذ نفسه بالشدة التى لا تعرف ليناً أو هوادة، وبالزهد فى كل شئ، والانصراف عن كل شئ، وما زال بها على

(١) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) نفس المرجع السابق، ص١١.

هذه الحال، حتى تهيأ له ما كان يطمح إليه من كمال. حتى كانت امرأة منعمة تعرض نفسها إلى سمنون ليتزوج بها، وهو يمتنع عنها، ولم يقبلها، فذهبت إلى الجنيد تستشفع به إلى سمنون، فنهرها الجنيد.(١)

والأجمل فى منهج سَمنون أنه استطاع أن يخلق لغة للحب الإلهى بعيدة كل البعد عن لغة الحب الحسى وهذا ما عجز عنه كل الصوفية عبر طول الأزمان. فلم يمضى سمنون إلى العالم الروحى وفى قلبه ذرة من صور العالم المحسوس، فكان خياله حقيقة وحقيقته صدق. فيقول سَمنون: "لا تصفو المحبة حتى تنظر إلى العوالم بنظر الحقارة".(٢) أى أن المحبة هى الطاعة ومولاة الله سبحانه وتعالى فهذا هو الغرض الأسمى، إما إذا تحولت لغرض دنيوى فسوف تموت وتنتهى وتصبح نوع من البلاء. لهذا قال الجنيد: "كل محبة كانت لغرض، إذا زال الغرض زالت تلك المحبة".(٣) وقال يحيى ين معاذ: من نشر المحبة عند غير أهلها فهو فى دعواه دعى وقيل: إدعى رجل الاستهلاك فى محبة شخص فقال له الشاب كيف هذا وهذا أخى أحسن منى وجهاً وأتم جمالاً، فرفع الرجل رأسه يلتفت وكانا على سطح فالقاه من السطح. وقال هذا أجر من يدعى هوانا، وينظر إلى سوانا".(٤)

وآخر خطوة فى منهج سَمنون هو القول بأن طلب المحبة والوصال مذلة، فالمحب عزيز فى الحقيقة ما لم يطمع فى الوصل، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلاً، وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه، تكون محبته معلولة. (٥) إذا أحب الله العبد أحبه، ولا يستطيع العبد أن يحب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحب له، وذلك حين عرف

(١) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٥٠٠.
(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٣١.
(٣) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٥١.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٥٣.
(٥) الهجويرى، كشف المحجوب، جت٢، مصدر سابق، ص٢٢٠.

منه الاجتهاد فى مرضاته.[١] ثم إن المحب كذلك، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا، لأن المحب يرى نفسه فى مقابل محبوبه حقيراً، وهو يتواضع له، وهذا أيضاً من نتائج الطمع، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزاً. وطالما كانت زليخا طامعة فى يوسف، كانت تزداد كل لحظة ذلاً، وعندما انقطع عنها الطمع، رد الله تعالى إليها جمالها وشبابها.[٢]

فلو قيل ما أنت؟ لقلت معذب بنار مواجيد يُضرمها العتب

بليت بمن لا أستطيع عتابه ويعتبنى حتى يقال لى الذنب[٣]

ففى تحقيق المحبة يكون العذر غربة، والعتاب مخالفة، والأحبة فى محل يبدو فيه هذان آفة فى أحوالهم، لأن العذر يكون عن موجب تقصير صدر من الحبيب فى حق الحبيب، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر إليه. والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب فى أمر الحبيب، وعندئذ يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير. وكلاهما محال. فإن المحبة ترك الشكوى من البلوى، بل استلذاذ البلوى، إذ الكل منه، فمن أسخطه وارد من محبوبه تبين عليه، نقصان محبته".[٤]

إذن منهج سَمنون كان طريقاً إلى التواضع النفسى عند المحب، فيقوم بتوجيه نفسه إلى عظمة الله حتى تصبح شفافة نورانية لأن من نظر إلى سلطان الله ذهب عنه سلطان نفسه، فالنفوس كلها لا قيمة لها بجانب عظمته. وسَمنون يترك ما يحبه من أجل محبوبه ويرضى بما يرضى محبوبه وان لم ترض نفسه. بمعنى أن حب الموافقة التى يجب أن يتصف بها المحب تكون دافعاً لترك المخالفة، فالخطوة الأولى للترقى فى المحبة هى مخالفة هوى النفس من أجل موافقة المحبوب ويكون ذلك علامة على صدق المحب.

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٢٩٤.

(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٣٤٨.

(٣) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص١٠.

(٤) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٦٠.

ويوضح سَمنون ذلك أنه: يشعر بلذة الصبر الجميل عن الشئ الذى يلـذه أو يحبه، فالصبر عنده ألذ من الشئ الملذ ولا يرضاه محبوبه، وكـذلك يهـوى المُحب ترك الشئ الذى يحب محبوبه أن يتركه فيتركه من أجله.

نحن أمام أشعار رسمت الطريق لكل من أتوا بعده، فمظعـم أشـعار سَمنون ترانيم عشق قصار، فلا نجد فى شعره قصيدة مطولة، وإنمـا هـى متفرقات لا تزيد الواحدة على أربعة أبيات. وهذه الخاصية لا نجـدها فقـط عند سَمنون ، بل كانت سمة عامة للشعر الصوفى آنذاك، ولم تعرف القصائد الصوفية الطوال، إلا فيما بعد القرن الخامس الهجرى.[1] ومـع أن السـواد الأعظم من الذين ترجموا لسَمنون جعلوه معبراً شعراً عن المحبة الإلهيـة، فعدوه من شعراء الحب الإلهى، وعلى الرغم من كونها عبارة عـن أبيـات قليلة هنا وهناك، ولا تقاس من حيث الكم إلى آثار غيره من شعراء كجلال الدين الرومى وأبوالعتاهية، وابن الفارض؛ وفريد الـدين العطـار وحـافظ الشيرازى. وعلى الرغم على قلة هذه الأبيات إلا أنها تعد بحق تراثاً روحياً خصباً خالداً يؤرخ لهذه الحقبة من تطور التصوف.

ثانياً : تعريفات المحبة الإلهية وأصولها من القرآن والسنة:

(أ) تعريفات المحبة الإلهية وموقف سَمنون منها:

عبارات الناس عن المحبة كثيرة، وتكلموا فـى أصـلها فـى اللغـة فبعضهم قال الحب اسم لصفاء المودة، لأن العرب تقـول الصـفاء بيـاض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان وقيل الحباب ما يعلو الماء عنـد الشـديد، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثوراته عند العطش، والاحتيـاج إلـى لقـاء المحبوب، وقيل إنه مشتق من حباب الماء بفتح الحاء، وهو معظمه فسـمى بذلك وأن المحبة غاية معظم ما فى القلب من المهمات، وقيل اشـتقاقه مـن اللزوم والثبات يقول احب البعير وهو أن يبرك فلا يقوم، فكان المحـب لا

(١) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص٩.

يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه، وقيل مأخوذ من الحبة بكسر الحاء وهى بذور الصحراء، فسمى الحب حباً لأنه لباب الحياة، كما أن الحب لباب النبات وقيل الحب هى الخشبات الأربع التى توضع عليها الجرة فسميت المحبة حباً، لأنه يتحمل عن محبوبه كل عز وذل وقيل هو من الحب الذى فيه المـــاء لأنـــه يمسك ما فيه فلا يسع فيه غير ما امتلأ به كذلك إذا امتلأ القلب بالحب فـــلا مساغ فيه لغير محبوبه.(١)

فالمحبة هى عبارة عن ميل الطبع إلى الشئ الملذ، فإن تأكـــد ذلـــك الميل وقوى سمى عشقاً. والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوى سمى مقتاً. (٢) فإن الحب والمحبة ميل النفس إلى ما تراه أو تظنـــه خيراً.(٣) وتسقط المحبة كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب، فقال الجنيـــد "المحبة إفراط الميل بلا نيل"(٤) وبذلك ترادف المحبة الإرادة بمعنى الميـــل، فمحبة الله لعباده إرادة كرامتهم وثوابهم، ومحبة العباد لله تعالى إرادة طاعته، وقيل: محبتنا لله تعالى كيفية روحانية مترتبة على تصور الكمال المطلـــق، وأما محبتنا لغيره فكيفية مترتبة على تخيل كمال فيه لذة ومنفعـــة كمحبـــة العاشق لمعشوقه والوالد لولده والصديق لصديقه. (٥) المحبة إذن هى الميـــل الدائم بالقلب الهائم. وقيل المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وقيل موافقة الحبيب فى المشهد والمغيب، وقيل محو المحـــب بصـــفاته وإثبـــات المحبوب بذاته، وقيل مواطأة القلب لمرادات الرب، وقيل خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة، أى أن الحب معانقة الطاعة ومباينة المخالفة.(٦)

---

(١) القشيرى، الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص٢٤٨.

(٢) الغزالى، إحياء علوم الـــدين [كتـــاب المحبـــة]، دار الكتـــاب الحـــديث، ط١، القـــاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٣٤٠.

(٣) د/ حسن محمد الشرقاوى، ألفاظ الصوفية ومعانيها، دار المعرفة الجامعية، ط٢، الاسكندرية، د.ت، ص٢٨٠.

(٤) القشيرى، الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص٢٥٠.

(٥) التهانوى، كشاف اصلاحات الفنون والعلوم، دار صادر، ط١، بيروت، د.ت، ص٢٨٣.

(٦) القشيرى، الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص٦٥.

حتى القشيرى فى تفسير قوله تعالى: " ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ " [البقرة:١٦٤] ، يرى أن المراد هو مدح المؤمنين على محبتهم ومن أحب حبيباً استكثر من ذكره واستحسن كل شئ منه. وتلك المحبة ليس من جنس محبة البشر بل محبة من ليس بجنس لهم فذلك أعز وأحق ومحبة المؤمنين أشد لأنها من جنس موافقة الأمر وطاعة الرب سبحانه.(١)

المحبة هنا محبة موافقة الأمر وطاعة البارى سبحانه وتعالى، فإن بداية المحبة موافقة ثم الميل ثم الموانسة ثم المودة ثم الهوى ثم الخلة ثم المحبة ثم الشغف ثم التيم ثم الوله ثم العشق. (٢) وهذا ما أكد عليه الإمام الرازى فى التفسير الكبير فى تفسير قوله تعالى : "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله" فلقد اختلف العلماء فى معنى المحبة فقال جمهور المتكلمين أنها نوع من الإرادة والإرادة لا تعلق لها إلا بالجائزات فيستحيل تعلق المحبة بذات الله تعالى وصفاته، فإذا قلنا نحب الله فمعناه نحب طاعته وخدمته أو ثوابه واحسانه. وأما العارفون فقد قالوا العبد قد يحب الله تعالى لذاته واما حب خدمته أو ثوابه فدرجة نازلة وذلك أن اللذة محبوبه لذاتها وكذا الكمال.(٣)

وفى هذا المعنى أنشد سَمنون يقول:

يا من فؤادى عليه موقوفوكل همى إليه مصروف

يا حسرتى حسرة أموت بهاان لم يكن لى لديك معروف(٤)

وقد اعتبر سَمنون الحب لله عين الحياة، فيقول فى تلك الأبيات: الموت بالحب حياة، والحياة بدون حب موت. ولعل ما يقصده سَمنون من أن حب

(١) القشيرى، لطائف الإشارات، ط١ [تفسير سورة البقرة]، دار الغد الجديد، القاهرة، د.ت، ص١٤٤.
(٢) التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون، مصدر سابق، ص٢٧٣.
(٣) الرازى، التفسير، جـ١، دار الفكر ، بيروت، ١٩٨١م، ص٩٥.
(٤) البغدادى، تاريخ بغداد، جـ٦، مصدر سابق، ص٣٢٤.

الله هو الحياة، ان هذا الحب هو أسمى عاطفة فى الإنسان، وكأنما خلق قلبه له، وإن اتصال القلب بمحبوبه وهو الله حياة لهذا القلب، وانقطاعه عنه موت له. ويعتبر محمد بن ابراهيم البغدادى، أول من تكلم ببغداد فى المحبة والشوق، والقرب والأنس، على رءوس الناس. وهو أستاذ الجنيد، بل أستاذ جميع البغاددة؛ وكان الإمام أحمد يقول له فى المسائل: "ما تقول فيها يا صوفى؟!". وقيل له: "هل يفرغ قلب المحب إلى شئ سوى محبوبه؟" فقال: "لا! لأنه بلاء دائم وسرور منقطع، وأوجاع متصلة؛ لا يعرفها إلا من باشرها".(١)

وبالتالى فإن للقلب جواهر منها جوهرة المحبة: إذا انفتحت فى القلب يكون العبد أبداً راضياً عن الله وراضياً بحكمه بلذة وإيثار لذلك الرضا على كل ما عداه، لو وقع به فى الوقت أعظم الهلاك لكان أحب إليه من جميع الشهوات. (٢) فهناك شبه اجماع على أن المحبة هى ميل القلوب أى يميل قلب العبد إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف، فهى الموافقة التى تعنى الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدر. فإن المحبة إيثار للمحبوب، أى لا يبقى لك حظ ولا يكون لمحبتك علة ولا تكون قائماً بعلة.(٣) وهذا ما أكده سَمنون عندما سُئل عن المحبة، فقال: صفاء الولاء، مع ذكر دائم، قال الله تعالى: " اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً " [الأحزاب/٤١]. وقال: من أحب الله تعالى وجد شرف الدنيا والآخرة(٤)، عن أنس بن مالك؛ أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أعددت لها؟" قال: حُب الله ورسوله. قال: "أنت مع من

(١) ابن ملقن، طبقات الأولياء، جـ١، مصدر سابق، ص١٥٣.

(٢) د/ أيمن حمدى، قاموس المصطلحات الصوفى، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥٢.

(٣) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: أرثر جون أربرى، الناشر مكتبة الخانجى، ط٢، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧٩.

(٤) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٥٠١.

أحببت".[1] فهم فى الدنيا والآخرة مع الله تعالى. فمن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما واجتناب نهيهما والتأدب بالآداب الشرعية. فإن الحب الإلهى ليس شطحاً أو خيالاً، وإنما هو ثمرة حقيقية للإيمان القوى والتدين العميق، وينعكس أثره على حياة الفرد تهذيباً، وعلى حياة المجتمع ارتقاء. فهناك علاقة قوية بين الحب والايمان فى قوله تعالى: "والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ " [البقرة:١٦٤]. ويربط تعالى بينه وبين حب الرسول وطاعته فى قوله: " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" [آل عمرن:٣١]. والمحبة للقلب مثل الطعام والشراب، وكل قلب خال منها يكون خرباً، ولا سبيل للتكلف إلى دفعها أو جلبها. والنفس تجهل لطائف ما يمر على القلب.[2] فعندما سئل سَمنون عن المحبة فقال: صفاء الود مع دوام الذكر. بمعنى أن المحبة تعنى الود الخالص والذكر الدائم. فإن الموافقة: هى أن تعادى أعداء الحق كالشيطان والدنيا والنفس، وأن تحب أحباب الحق والمؤانسة: هى أن تهرب من الجميع وأن تطلق الحق فى كل وقت، والمودة: هى أن تكون فى الخلوة مشغول القلب بإظهار التضرع، والهوى: أن يكون قلبك دائماً فى المجاهدة ومقاومة النفس، والمحبة: هى التطهر من الأوصاف الذميمة والاتصال بالأوصاف الحميدة، وكلما تطهرت النفس من الأوصاف الذميمة والاتصال بالأوصاف الحميدة، كلما سمت الروح نحو المحبة.

وسَمنون يصف المحبة بأنها حال يمر بثلاث مراحل: فالحال الأول من المحبة: محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم. وشروط هذا الحال من المحبة عند سمنون : صفاء الود مع دوام الذكر؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره. فإن المحبة هى موافقة القلوب لله؛ وإيثار طاعته، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم مع دوام ذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل. فالمحبة تحدث ببذل المجهود والحبيب

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، ص١٥٢.
(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ١، مصدر سابق، ص٥٥٢.

يفعل ما يشاء. [١] الحال الثانى من المحبة، وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته، وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين. وشروط هذا الحال هى هتك الأستاروكشف الأسرار. وهذا لا يتم إلا بالتخلى عن الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات. أما الحال الثالث من المحبة، فهو محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة. وقال على بن الحسن بن طغان: أنشدنى بعض أصحابنا أبياتاً لسَمنون، وهى تقول:

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابهفلستُ أراه عن فنائك يبرحُ
رُميت ببين منك إن كنت كاذباًإذا كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيءٌ في البلاد بأسرهاإذا غبت عن عيني بعيني أملحُ
فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصلفلستُ أرى قلبي لغيرك يصلحُ[٢]

وهذا المعنى وصل إليه ذو النون المصرى، فوصف المحبة الصافية بأنها سقوط المحبة عن القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله. وهذا ما أكد عليه الجنيد عندما سئل عن المحبة فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب[٣]، لأن المحبة إذا صارت محبوبه وهى صفة ذاتية للمحب تحقق الوصول وارتفع التضاد عن الجهتين بفناء المحب فى المحبة المحبوبة، ولذا قال المحققون المحب والمحبوب شئ واحد وفى هذا المقام لا تكون المحبة حجاباً لقيامها بذاتها عند فناء جهتى المحبوبية والمحبية فيها. فهذا على معنى قوله: "حتى أحبه فإذا

(١) الطوسى، اللمع، ضبطه وصححه، كامل مصطفى الهنداوى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٥٥.

(٢) ذكر هذه الأبيات ابن خميس فى مناقب الأبرار، ومحاسن الأخيار، مصدر سابق، ص٤٣٩، وكذلك ذكر هذه الأبيات ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٠٧.

(٣) الطوسى، اللمع، مصدر سابق، ص٥٥.

أحببته كنت عينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به، ويده التى يبطش بها".

إذن هذه الأبيات تؤكد على: أن قلب سَمنون استجاب لنداء المحبة ولن يتحرك من رحابها. كما أن سمنون يدعو على نفسه فى البيتين الثانى والثالث بفرقة محبوبه أن كان كاذباً فى قوله: إنه لا يفرح فى الدنيا إلا بمحبوبه، ولا يصبح هناك شيئاً جميلاً فى جميع البلاد فى عينيه إذا غاب محبوبه عنهما. ثم يخاطب محبوبه – فى البيت الرابع – ويعلن رضاه بمشيئته فى وصله أو عدمه، إلا أنه يخبره أيضاً أن قلبه لم يعد يصلح إلا لمحبته. ومنه نفهم أن محبوبه شغل قلبه كلية بمحبته فلم يعد للدنيا ومتاعها نصيب فيه، حيث أن قلبه ومحبوبه أصبحا شيئاً. وإذا أخذته سنة من النوم فإنه يرى محبوبه على الفور بين جفن عينه وحدقها.

أن المحب يتلذذ ويسعد بكل ما يريد إليه من حبيبه الذى هو الله، من بلاء وابتلاء، ونعمة ونقمة، فهو العيش الحقيقى، أى أن المحب لا عيش له مع الخلق لأنه يحيا مع حب الله وعشق الله، ولا يرى حبيباً سواه ولا عيش مع غيره، فيذهب عيشه من الدنيا ويبقى عيشه لله تعالى. والمحب على هذا الأساس قليل الاختلاط بالناس، كثير الخلوة بالله تعالى، دائم التفكير، ظاهره الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودى، ولا يفهم إذا كلمه أحد، ولا يحزن إذا أصيب ببلاء، فلا يدرى ولا يشعر، ينظر إلى الله فى خلوته، ويأنس به، ويناجيه، ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم. لدرجة أنه قيل عن سَمنون بروايتين الأولى: عن على بن الحسين رضى الله عنه. (١) والثانية: عن أبوالطيب العكى.(٢) أن سَمنوناً كان جالساً يوماً على شط دجلة وبيده قضيب يضرب به ساقه وفخذه حتى تبدد لحمه وتناثر وهو لا يشعر بحزن أو بألم وهو ينشد ويقول:

(١) الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ١، مصدر سابق، ص١٣٠.

(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٧٠.

كان لى قلب أعيش بهضـــاع منى فى تقلبـــه
رب فارددە على فقـــد عيل صبرى فى تطلبـــه
وأغث ما دام لى رمقيا غياث المستغيث بـــه

ندرك هنا حنين سَمنون الدائم لمحبوبه من بداية العمر إلى نهايته حتى قبل أن يخلق، فنهاره كله حرارة وشوقاً لله، فإذا جاء الليل، فلم يكن أقل حالاً من نهاره، فإذا كانت الأيام تتناقص وتغيب فإن شوقه يتزايد وكـــأن زمانـــه لا يغيب. فبكى لدرجة أن تركت دموعه مكانها آثاراً، وأصبحت فـــى قلبـــه جراحاً وذلك كله تلهفاً على محبوبه. لذلك فإنه يقرر أن الصبر محمود فـــى المصائب جميعها إلا على المحبوب فإنه بالقطع مذموم.

أمسى بخدى للدموع رسوم أسفاً عليك، وفى الفؤاد كلوم.
والصبر يحسن فى المصائب كلها إلا عليك فإنه مذمـــوم(١)

أن شدة محبته لمحبوبه جعلت قلبه مريضاً يزار، وطردت النوم مـــن عينيه حتى أصبح لا نوم له .. ولا حتى رقاد. إلا أن المحـــب لا بـــد وأن يتحمل كل شئ فى سبيل محبته.

(ب) المحبة الإلهية أصل الطاعة عند سَمنون:

علمنا أن شيخنا سَمنون كان من رواد الطبقة الثانية أو مـــن رجـــال صوفية القرن الثالث الهجرى، وكان الحب الإلهى النغمة السائدة والرائدة فى مجال التصوف الاسلامى، فكان هذا المعنى سائداً عند هؤلاء الرجال، فيقول الجنيد(٢) :إذا صحت المحبة، سقط شرط الأدب. و: كل محبة كانت لغرض، فإذا زال الغرض، زالت تلك المحبة. وقال أبوبكر الكتانى: جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم المشايخ فيها، وكان الجنيد أصـــغرهم ســـناً، فقالوا له: هات ما عندك منها يا عراقى. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثـــم قال: عبد ذاهب عن نفسه، مُتصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليـــه

(١) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص١٩٩.
(٢) ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، جـــ١، مصدر سابق، ص٣٥٨.

بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله. وقيل له: لأى شئ يبكى المُحب إذا لقى المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به، ووجداً من شدة الشوق إليه، ولقد بلغنى أن أخوين تعانقا، فقال أحدهما: واشوقاه! وقال الآخر واو جداه!.

الطاعة هى عنوان المحبة لله وهى الطريق الصحيح، فإن الحب يؤثر فى نفس المحب ويبلغ منها مبلغاً كبيراً فيحملها من المشقة والألم ما تطيق وما لا تطيق. ولكن المحب برغم هذه المشقة وهذا الألم لا يشكو ولا يتبرم، بل هو راض عن كل ما يصيبه من أهوال المحبة، محتمل له.

يقول سَمنون: ولا خير فى شكوى إلى غير مشتكىولا بد من سلوى إذا لم يكن صبر[١]

حب سَمنون لله ثمرة معاناة حقيقية، يقول الصوفية: من ذاق عرف ويعنون بذلك أن معارفهم وأسرارهم، ومقاماتهم وأحوالهم، ذوق خالص، ولا بد لمن يريد الحكم عليها من تجربة صادقة.

لدرجة أن أحمد بن أبى الحوارى الذى وصفه الجنيد بأنه ريحانة الشام. يقول عن المحبة: علامة حب الله حب طاعته.[٢] أما حاتم البلخى[٣] المعروف بحاتم الأصم، فيرى: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب: من ادعى حُب الله بغير ورع، ومن ادعى حُب الجنة بغير إنفاق، ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير حُب الفقراء. فإن القلب لا يصفو

(١) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص٢٢.
(٢) ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، جـ١، مصدر سابق، ص٢٩٤.
(٣) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٥٩٠.

لعمل الآخرة إلا أن تجرد عن حُب الدنيا. وذهب إلى ذلك سهل التستري وقال: من تمام المحبة، أن تحب ما يُحبه حبيبك، وتكره ما يكرهه.(١)

أما السرى السقطى خال الجنيد ورفيق سَمنون يقول عندما سئل عن الطريق الموصل إلى الله؟ الطريق إلى الله هو الزهد فى الدنيا، والرغبة والمحبة فيه أى فى الله. فإن الإصرار على الذنوب تنحى المحب عن باب المحبوب: لأن الأنس بالله نور ساطع، والأنس بغير الله سم قاطع كما قال ذو النون المصرى.(٢)

وأجمل سَمنون كل هذه المعانى الجميلة، فيقول: دليل صدق المحبة لله هو دوام الأنس بذكره نور المعرفة فى القلب، وإشراقه فى عينى الفؤاد فى الصدر، فبذكر الله يرطب القلب ويلين، وبذكر الشهوات واللذات يقسو القلب وييبس، فإذا شغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات، كان بمنزلة شجرة، إنما رطوبتها ولينها من الماء، فإذا منعت الماء يبست عروقها، وذبلت أغصانها، فإذا مددت غصناً منها انكسر، فلا يصلح إلا للقطع، فيصير وقود النار، فكذلك القلب إذا يبس وخلا من ذكر الله، فأصابته حرارة النفس ونار الشهوة، امتنعت الأركان من الطاعة، فإذا مددتها انكسرت، فلا تصلح أن تكون إلا حطباً للنار، وإنما يرطب القلب بالرحمة والمحبة. (٣) والحق أن سَمنون كانت نفسه صالحة صلاحية تامة للحب الإلهى، فهو لم يتحدث كثيراً عن الجنة والنار، أى لا يجعل الخوف والرجاء موصلين بأشياء حسية لا يفكر فيها المحبون، والأصل فى الحب الإلهى أن يكون جذوة تشغل المحب عن كل ما سوى المحبوب، فلا يعرف النعيم ولا الجحيم، ولا يفكر إلا فى رضا المحبوب، ولو كان من رضاه أن يقذف بالمحب فى مهاوى الشقاء.

(١) نفسه، ص٦٤٢.

(٢) نفسه، ص٦٠٠.

(٣) ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، جـ١، مصدر سابق، ص٤٦٨.

بل نجد عند سَمنون علاقة واضحة بين المحبة والابتلاء .. فها هـو سَمنون يدعو فى بعض أبياته، إلى المزيد من الابتلاءات:

ضاعف على بجهدك البلوىوأبلغ بجهدك غاية الشكوى

واجهد وبالغ فى مهاجرتىواجهر بها فى السر والنجوى.(١)

والبلاء فى المحبة الصوفية أمر مطلوب! فبه ترتفع الدرجات ويقترب الصوفى من مقامات أهل الكمال؛ وأشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأولياء ثـم الأمثل فالأمثل. وبالابتلاء تخلص نفس المحب من الشـواغل، فـلا تلتفـت إلا للمحبوب، الذى قد يبالغ فى البلاء حتى يصل لحد القطع أى لم يبق لـه مال ولا ولد وبالابتلاء يكون امتحان المحب، ولا شئ لدى المحبين أحلى من امتحانات الحبيب! فبها يؤكدون محبتهم.

ومن هنا نجد أن سَمنون اتجه إلى حب الله حباً عبر عنه بفنائه عـن نفسه وبقائه بالله وجعل هذا الحب غاية حياته وملتقى آماله من هذا انطلـق نحو الاستجابة لتعاليم الله بباعث ووازع من حبه له، ورغبة أكيدة فى كسب مرضاته وتحول الله عند سَمنون من معبود يخافه ويرهبه إلى محبوب يأنس بقربه ويتطلع إلى مرضاته ولهذا ارتدت أخلاق السالكين إلى الحب الإلهـى لأن قوامه إيثار ما لله على ما للنفس والتضحية فى سبيل الغير. وينشد ابـن فراس لسَّمنون فى هذا المعنى قائلاً:

أفـديـكَ بل قلّ أن يفديك ذو دنفٍهـل فـي المذلّة للمشتاق من عار

بي منك شوقٌ لو أن الصخر يحملهتـفـطّـر الصخر عن مستوقد النار

قد دبّ حبّك في الأعضاء من جسديدبيب لفـظى من روحي وإضماري

ولا تـنفّـست إلا كـنت مع نفسيوكـل جـارحة من خاطري جاري(٢)

يدور رحى الحزن على دموعهم وتفور نار الشوق بين ضلوعهم قـد فنوا عن أنفسهم ببقاء المحبوب، وفقدوا طلبهم بوجدان المطلوب فهـم بـين

(١) د/ يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، مرجع سابق، ص٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٩.

روض المحو وغدير الإثبات أموات غير أحياء. أحياء غير أموات فطوراً يرونه فيطربون عند الكشف والتجلى، وتارة يخشونه فيهربون عند الحجب والستر وكيف الطرب ولا مقرب وإلى أين الهرب، ولا مهرب.(١) فإن المحبة: بدايتها موافقة المحبوب وترك مخالفته. ووسطها، أن لا يؤثر على الله غير الله. ونهايتها، نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة. نار لا تبقى ولا تذر. نار تحرق فى الدنيا قلوب العاشقين، وفى الآخرة جلود الفاسقين.

فإن علامات المحبين: أنهم مخصوصون بعلوم المكاشفات متلذذون بنعيم المشاهدات. وأصحاب الذكر والاعتبار، وأرباب المحن والاختبار، ممن أسعدهم الله بطاعته وحفظهم برعايته. يستقلون الكثير من أعمالهم، ويستكثرون القليل من نعم الله عليهم. إن أنعم الله عليهم شكروا، وإن منعوا صبروا. فالحسرات فى قلوبهم ترد. وخوف الفراق فى صدورهم يتوقد. أذاقهم الله طعم محبته ونعمهم بدوام العذوبة فى مناجاته. أسرار الغيوب عندهم مكشوفة. وهممهم عما سوى الله مصروفة. حوائجهم من الله مأمولة، وأمورهم إلى الله موكولة. وبالتالى فإن المحبة عند سمنون هى أصل طريق الحق تعالى وقاعدته، والأحوال والمقامات منازل، وكل محل يكون فيه الطالب يجوز عليه الزوال، إلا محل المحبة فلا يجوز عليه الزوال بأى حال من الأحوال، ما دام الطريق موجوداً. وقد اتفق جميع المشايخ الآخرين معه فى هذا المعنى، ولكن بحكم أن هذا الاسم عام وظاهر، فقد أرادوا أن يخفوا حكمه بين الخلق، وأن يبدلوا الاسم فى تحقيق وجود المعنى، فسموا صفاء المحبة: صفوة، وسموا المحب: صوفياً، وفريق آخر سموها: فقراً، وسموا المحب: فقيراً، لترك اختيار المحب فى اثبات اختيار الحبيب، لأن أقل درجة فى المحبة هى الموافقة، وموافقة الحبيب مخالفة للغير.(٢) والواقع أن سمنون أحب الله إلى حد الفناء، وقصته فى حب الله قصة طويلة، فقد تنقل المسكين

(١) أبوبكر الرازى، منارات السائرين، مصدر سابق، ص٢٢٤.

(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٢.

من أرض إلى أرض، وتشكل فى مظهره ومخبره أشكالاً مختلفات؛ فكان له فى كل أرض حال، ومع كل قوم رأى، ولقى فى سبيل محبوبه أفظع ضروب الشقاء. قضى السنين الطوال وهو يشاهد طيف الحبيب، الحبيب الممنوع الذى يراه فى كل موجود، ولا يظفر منه بشئ غير الوجد والحنين. كان المسكين يحب حبيباً لا يُدرك ولا ينال كان يحب النور الذى يُغشى الأبصار والقلوب، كان يحب الله.

فقيل له: تكلم فى المحبة فقال: لا أعلم أحداً على وجه الأرض يستأهل الكلام فيها، فوقع بين يديه طائر، فقال: إن كان هذا، وجعل يُكلمه فى المحبة، والطير يضرب بمنقاره الأرض، حتى سال دمه، واضطرب ومات.(١) إذن الطريق إلى الله موصول بالمحبة لكن تعترض هذه المحبة عقبات، فليس كل من يدعى المحبة يصل. فإن المحب لا يملك شيئاً، يسلم الكل إلى محبوبه، محبة وتملك لا يجتمعان. المحب للحق عز وجل الصادق فى محبته يسلم إليه نفسه وماله وعاقبته، ويترك اختياره فيه وفى غيره، لا تتهمه فى تصرفه، لا تستعجله، لا تبخله، يحلو عنده كل ما يصدر إليه منه، تنسد جهاته، لا يبقى له جهة واحدة(٢). حتى إن سَمنون جعل تعريف التصوف مثل تعريف المحبة، فقال: "التصوف هو أن لا تملك شيئاً، ولا يملكك شئ".

ويقول فى هذا المعنى: "الحب عند الزهاد أظهر من الاجتهاد، وعند التائبين أوجد من الحنين والأنين، وعند الأتراك أشهر من الفتراك(*) ، وسبى الحب عند الهنود أشهر من سبى محمود(*)، وقصة الحب والحبيب عند الروم أشهر من الصليب.(٣) هنا المحب الحقيقى يغيب عن كل شئ عن نفسه

(١) المناوى، الكواكب الدرسة، مصدر سابق، ص٦٣٢.
(٢) ابن خميس، مناقب الأبرار، ومحاسن الأخيار، مصدر سابق، ص٤٤٢.
(*) كلمة فارسية تعنى السير الذى يتدلى من سرج الفرس ويعلق به الصيد.
(*) اشارة إلى غزو السلطان محمود الغزنوى لبلاد الهند وتحطيمه لمعابد الأصنام.
(٣) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٢.

وجوارحه ويبقى بذات الله عز وجل، مما دعى بعض المستشرقين القول أو تتحول نغمة الحب الإلهى الظاهرة فى الجيل الأول والثانى وبالتحديد عند صوفية الطبقة الثانية أو صوفية القرن الثالث إلى سبب لاسقاط التكاليف الشرعية أو تفسيرها على أنها نوع من الحلول أو الاتحاد وهذا كذب وافتراء، فكيف لرجل مثل سَمنون، كان ورده فى كل يوم وليلة خمسمائة ركعة. (١) يسقط التكاليف والأحكام الشريعية مهما وصل بالمحبة الالهية. فإن كلمة الحب لم تكن مصطنعة أو منحوتة أو منحولة وإنما هى كلمة أصلية موجودة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

هذا القلب، إذا عرف الحق عز وجل وأحبه وقرب منه يستوحش من الخلق والكون إليهم، يستوحش من أكله وشربه ولباسه ونكاحه، يستوحش من العمران ويهيم على وجهه إلى الخراب، لا يقيده شئ سوى أمر الشرع، يقيده فى الأمر والنهى والفعل، يقيده إلى أوقات مجئ القدر. ويؤكد ذلك سَمنوناً فيقول: كنت ببيت المقدس، وكان برد شديد، وعليِّ جبة وكساء، وأنا أجد البرد والثلج يسقط ... فإذا شاب مار فى الصحن، عليه خرقتان، فقلت: يا حبيبى، لو استترت ببعض الأروقه فيكنك من البرد؟ فقال لى يا أخى سَمنون:

ويحسن ظنى أننى فى فنائهوهل أحد فى كنه يجد القرا؟(٢)

والمعنى هنا ليس حلولاً أو اتحاداً وإنما المعنى هو أنه عندما يبقى المحبوب ينبغى أن يفنى المحب، لأن غيرة المحبة تنفى بقاء المحب لتصير لها الولاية المطلقة. ولا يكون فناء صفة المحب إلا بإثبات ذات المحبوب. ولا يجوز أن يكون المحب قائماً بصفته، لأنه لو كان قائماً بصفته لكان غير محتاج إلى جمال المحبوب، فعندما يعرف أن حياته بجمال المحبوب، فإنه بالضرورة يطلب نفى أوصافه، لأنه يعلم أنه مع بقاء صفته يكون محجوباً

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١١ ، مصدر سابق، ص١٦٨١.
(٢) أبونعيم الأصفهانى، حلية الأولياء، مصدر سابق، ص٢٨٢.

عن المحبوب، فصار بمحبته للحبيب عدواً لنفسه. فعلى لسان الجنيد المحبة ليست إشارة ولا ادعاء. أما عين المحبة فهى: أن تحب ما يُحب الله فى عباده، وتكره ما يكره الله فى عباده. فسأله رجل: على ماذا يتأسف المحب من أوقاته؟ قال: على زمان بسط أورث قبضاً، أو زمان أنس أورث وحشة، ثم أنشد يقول:

قد كان لى مَشرب يصفو برؤيتكمفكدرته يد الأيام حين صفا.(١)

أى أن الإرادة والمحبة المتعلقة بالقديم، فليست إرادة فعل فيه بل هى محبة ذاته وكل إرادة ومحبة فلا بد أن تنتهى إلى محبوب لذاته وكل فاعل بالإرادة فإرادته تستلتزم محبة عامة لأجلها فعل، فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه. ومن لوازم حبه نفسه أنها محبة مريده لما يرد أن يفعله، وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها فالحب هو العلة الغائية التى لأجله كان كل شئ. فالمحبة هنا من باب الفعل وهو الطاعة. وهذا أبلغ رد على منركى أن يكون الله محبوباً، بحجة أن القول بإثباتها يؤدى إلى قول الحلولية.

وهذه نماذج من صوفية القرن الثالث الهجرى تؤكد على هذا المعنى، فنجد عندهم على العموم المحبة معانقة الطاعات ومباينة المخالفات. فهذا الحارث المحاسبى يرى أن المحبة الميل بالكلية إلى شئ، ثم إيثاره واختياره على الجسد والروح والمال، والموافقة معه فى السر والعلن، ثم بعد ذلك الاعتراف بالتقصير. فإن علاقة الانس بالحق الوحشة والنفرة عن الخلق، والتلذذ بحلاوة ذكر الله تعالى.(٢) وهذه الحلاوة قال عنها الحسن بن زرعان: كنت عند سمنون، فشهق شهقة، ثم قال: لو صاح إنسان لشدة وجده بحبه، لملأ ما بين الخافقين صياحاً.(٣)

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٣٤٧.
(٢) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٢٩٣.
(٣) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٦٢.

أما أبوبكر الكتانى يرى المحبة إيثار للمحبوب.[١] وابراهيم الخواص يرى المحبة محو الإرادة، واحراق الصفات البشرية، وترك الحاجات.[٢] فالحب موجود والمقصود الأهم منه الصدق فيه. وكذلك الشبلى يقول: المحبة ترك ما تحب لمن تحب. وقال: من ادعى المحبة، ثم اشتغل بغير المحبوب، أو طلب غيره، فالحق أنه مستهزئ بالمحبوب. وقال: الهيبة تذيب القلوب، والمحبة تذيب الأرواح.[٣] ويحيى بن معاذ يقول: إذا أحب القلب خلوة، فقد أوصله حب الخلوة إلى الأنس بالله، ومن أنس بالله استوحش من غيره.[٤] أما أبوعلى الدقاق يقول: "إن من بنى اساسه على المحبة لا يفتر من عبادة المحبوب لحظة".[٥]

فالمحبة الإلهية فى نظر أصحاب الخبرة الصوفية هى "محو المحب بصفاته، وإثبات المحبوب بذاته، وهى خروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب. وهذا التصور إن دل على شئ، فإنما يدل على أن الصوفى يريد أن يفنى عن نفسه، لكى يقبل بكل همته على ربه، أو هو يريد أن يتجرد عن كل ما عدا الله، لكى يحيا ويوجد ويتحرك فى الله! ولكن الصوفى حين يتحدث عن العبادات، وحين ينتقل بين الأحوال والمقامات، فإنه لا يرمى من وراء هذا كله إلا معرفة الله. فكلما كانت المحبة فى القلب أقوى، كان أمر الحبيب على الحبيب أيسر، وهذا رد على تلك الطائفة من الملاحدة الذين يقولون أن العبد يصل فى المحبة إلى درجة ترتفع فيها عن الطاعة، وهذا محال، لأن حكم التكاليف لا يسقط عن العبد فى حال صحة العقل، لأن الاجماع على أن شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ، وإذا جاز

(١) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٥١٣.
(٢) نفسه، ص٥٢٣.
(٣) نفسه، ص٥٤٨.
(٤) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٢٨٣.
(٥) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٥٦٧.

أن يرتفع التكليف عن شخص فى حال الصحة فإنه يجوز أن يرتفع عن الجميع وهذه زندقة محضة.(١)

فالطريق إلى الحب الإلهى مشروط بالطاعة لله سبحانه وتعالى، والاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فكل من أدعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين الاسلامى فى جميع أقواله وأفعاله. فالطريق درجات .. والدرجة الأولى فى طريق الحب الإلهى هى الإلتزام بالأوامر والنواهى الشرعية على اختلافها. والدرجة الثانية فى التقرب إلى الله أرقى من الأولى وحال صاحبها أعلى وهو من لازم الشريعة تماماً فى الاعتقاد والعمل ثم زاد عليها النوافل، وبالطبع كلما زادت النوافل كان قربه من الله أكثر، فطريق المحبة طريق العلو إلى ما لا نهاية. ويصل إلى حال القرب الذى يقتضى حال المحبة وهى تتولد من نظر القلب إلى الله – عز وجل – وجلاله وعظمته، وعلمه وقدرته، فطوبى لمن شرب كأساً من محبته، وذاق نعيماً من مناجاته، فامتلاء قلبه حباً، فطار بالله طرباً، وهام به اشتياقاً، ليس له سكن ولا مألوف سواه، فهو محب خرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة، من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هو بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً بلا علة. (٢) إذن المحبة تقتضى الذكر، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل فى ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه، وصار كالغافل عن نفسه، ثم يغفل عن ذهوله عن نفسه، وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس، فيقال: فنى عن نفسه، ويقال: فنى بربه. وهو هنا يكون مختطفاً عن نفسه، ممحواً عن جملته فانياً عن كله.

حتى أنه كان فى بغداد رجل فرق على الفقراء أربعين ألف درهم فقال لى سمنون يا أبا أحمد القلانسى ألا ترى ما قد أنفق هذا وما قد عمله ونحن

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٥.

(٢) طه عبدالباقى سرور، التصوف الإسلامى، مرجع سابق، ص٩٠.

ما نجد شيئاً فامض بنا إلى موضع نصلى فيه بكل درهم أنفقه ركعة فمضينا إلى المدائن فصلينا أربعين ألف صلاة. (١)

وقال الحسن بن زُرعان: دخلت على سمنون، فرأيته يبكى، فجلست ساعة، وحضرت صلاة الظهر، فقلت: قد أذن. فقام وركع، ثم عاد لبكائه، فلما صلينا سألته عن بُكائه، فقال لى: يا أبا مُحمد، وقع لى خاطر من الله يقول لى: كيف أنت؟ فقلت: تستخبر عنى سيدى، وأنت بى أخبر منى! إن كنت أدرى كيف كنت، فلا كنت حيث كنت، فتركته وانصرفت. (٢)

فهو هنا يريد أن يبقى بالله ويفنى عما له: " ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ " [المائدة:٥٩]، فالباقى هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً فتكون كل حركاته فى موافقات الحق دون مخالفاته فيكون فانياً عن المخالفات باقياً فى الموافقات وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهى عنه كما أمر به ولكن على معنى أن لا يجرى عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى دون ما يكرهه ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه فى عاجل أو آجل وهذا معنى قولهم يكون فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق. (٣)

هذه الروايات وغيرها تؤكد على طاعة سَمنون لربه ومحبته عنوان الشريعة، فليس بصادق من ادعى محبة الله، ولم يحفظ حدوده. ومثقال خردله من الحب، أحب من عبادة سبعين سنة بلا حب. ومن نشر المحبة عند غير أهلها، فهو فى دعواه دَعِى. وعلامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.(٤) وتلك العبادة الدائمة الخالصة أدنت الصوفية من الله وقربتهم، فأحبهم وأحبوه، وأنس بهم وأنسوا به، ورضى عنهم ورضوا عنه، فغمرتهم أنوار المحبة،

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٤٤١.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٤٤٤.
(٣) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٩٣.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٨٠.

وفاضت حياتهم بالنور والسعادة والأنس والقرب، فتكونت لهم فلسفة فى المحبة جعلوها شرعة ونهجاً، وأنشودة ولحناً، ومن تلك المحبة كان ذوقهم وكان لونهم، ومنها تفرعت مقاماتهم وأحوالهم، وعليها كان تحليقهم وكانت معارجهم.

أخبرنى أبوعلى عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن فضاله النيسابورى بالرى، قال سمعت أبا الربيع محمد بن الفضل البلخى يقول: سمعت أبا الحسن على بن محمد الصوفى ببغداد يقول: كان سَمنون فى هيجانه يقول:

واجهد وبالغ فى مهاجرتى واجهر بما فى السر والنجوى
فإذا بلغت الجهد فى فلم تترك لنفسك غاية القصوى
فانظر فهل حالى بى انتقلت عما تحب لحالة أخرى. (١)

والامام الجنيد كان يقول: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"(٢) فإن من زعم أنه يعرف الله وهو كاذب ابتلاه بالمحن، وحجب ذكره عن قلبه، وأجراه على لسانه، فإن تنبه وانقطع إليه وحده كشف عنه المحن، وإن دوام السكون إلى الخلق نزعت من قلوبهم الرحمة عليه.

وهذا ما حدث مع سَمنون عندما ادعى أنه لا يوجد فى قلبه إلا الله، وأن محبته لله ما هى إلا شكلاً ظاهراً فقط على لسانه، فأنشد يقول:

وليس لى فى سواك حظ فكيف ما شئت فاختبرنى. (٣)

فأخذه الأسر من ساعته فقال بعض أصحابه لبعض: سمعت البارحة وكنت بالرستاق صوت أستاذنا سمنون، يدعو الله ويتضرع إليه ويسأله الشفاء. فقال الآخر: وأنا أيضاً كنت سمعت هذا البارحة، وكنت بالموضع الفلانى. فقال الثالث والرابع مثل هذا، فأخبر سمنون بذلك، وكان قد امتحن بعلة الأسر، فعلم أن نفسه تستهوى أشياء غير الله وأنه كذب عندما قال ليس

(١) البغدادى، تاريخ بغداد، مصدر سابق، ص٣٢٤.
(٢) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٥٧١.
(٣) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٦٤.

فى قلبى غير الله. ويجب عليه الصبر وعدم الجزع، فلما سمعهم يقولون هذا، ولم يكن هو قد دعا ولا نطق بشئ من ذلك، علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدباً بالعبودية والطاعة وستراً لحاله، فأخذ يطوف على المكاتب، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

وقال ابن عربى: لما أساء الأدب مع الله، وأراد أن يقاوم القدرة الإلهية، لما وجد فى نفسه من حكم الرضا والصبر، ابتلى بذلك، إذ مقاومة القهر الإلهى سوء أدب، وما ابتلى عبده إلا ليضرع إليه، ويسأله العافيه، والنفس مجبولة على طلب حظها من العافيه، فلما سأل هذا كان فى حكم العافيه، فلما سُلبها بهذا البلاء، طلبتها النفس بما جبلت عليه، ألا ترى إلى عالم العلماء، وحكيم الحكماء، كسف سأل العافية وأمر بها؟! فمن الأدب مع الله، وقوف العبد مع عجزه وضعفه، وفقره، وفاقته.(١) فلقد قال فى مناجاته: إلهى كلما امتحنتنى وابتليتنى تجدنى ثابتاً مسلماً، لا أتنفس على غير رضاك. فابتلاه الله تعالى فى الحال بوجع أليم كاد نفسه أن ينقطع، وهو يتنفس، واصطبر، فلما أصبح قال له الجيران: ما أصابك البارحة يا شيخ، فإنا لم نسترح من صياحك يا شيخ إلى الصباح؛ والحال أنه كان ساكناً، غير صائح، ولا يتنفس، لكن الله تعل جل ثناؤه أوصل صياحه إلى أسماع الجيران، ليعلم أن السكوت هو السكوت الباطنى لا الظاهرى؛ فإنه لو كان ساكناً فى الباطن كما كان فى الظاهر لما سمع جيرانه صوته، فامتحنه الله تعالى بذلك، لئلا يدعى بما لا يطيق.(٢)

ولم يطمئن قلب سَمنون مرة أخرى إلا بالتوبة، فيروى أنه لما أخذه الإسراء، احتبس بوُله أربعة عشر يوماً، فكان يتلوى كما تلتوى الحية على الرمل، ينقلب يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوُله قال: يا رب، تبت إليك، تبت إليك يُكررها. وأنشد:

(١) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣١.

(٢) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٥٠٠.

أنا راض بطـــول صـــدك عـــنى ليس إلا لأن ذاك هواكا
فامتحن بالجفا ضميرى على الوُدِودعنى مُعلقاً برجاكـــا.(١)

كان خوف سَمنون ان يكون مدعياً فى محبته لله، وأن اعلان طاعتـــه ينم عن عدم تواضعه، وكان شديد الخوف من أن تلبس نفســـه نـــوع مـــن الظاهرية، أو يحدث اختلاف بين الباطن والظاهر، فسَمنون لم يكن ينظر إلى نفسه وإلى عمله حتى يعجب بطاعته، بل كان ينظر إلى أمر الحق بالتعظيم، ويقول أن طاعتى لا تليق به، فلقد ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا والعقبى مع الحق، ولا يجوز الخطأ على من يكون معه، فـــالمراد بشرف الدنيا هو أن يكون الحق معهم، وبشرف العقبى أنهم يكونـــون مـــع الحق.

ولقد ادعى ابن تيمية(٢) نتيجة الفهم الخاطئ لأقوال سَمنون، أن سَمنون بهذا الكلام يستغنى عن رحمة الله، فيقول: "وهؤلاء – الصوفية – لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته، وعندهم نصيب من الخـــوف والشـــوق والغرام، ومع ذلك لو الواحد منهم جاع فى الدنيا أياماً أو ألقى فـــى بعـــض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة". ولهذا قال سَمنون:

وليس فى سواك حظ فكيف شئت فامتحنى

إبتلى بعسر البول فصار يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمكـــم الكذاب. وأبوسليمان لما قال قد أعطيت من الرضا نصيباً لو ألقانى فى النار لكنت راضياً. ذُكر أنه إبتلى بمرض فقال: إن لم يعافنى وإلا كفرت أو نحو هذا، والفضيل بن عياض إبتلى بعسر البول فقال: بحبى لك إلا فرجت عنى. فبذل حبه فى عسر البول.

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٤٤١.
(٢) ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٠٠.

أشهد الله بأننى مُحب لابن تيمية لأن أستاذى الدكتور عبدالفتاح فـــؤاد يُحبه[١] وهذه هى المرة الأولى التى أنتقد فيها ابن تيمية، فلقد فهم قصة عُسر البول خارج سياقها، فكان سَمنون يلح على عدم الجذع والتأدب مع الله عند الابتلاء، وحتى لا يقع تحت هوى وفزع النفس عند الشدائد والمحن واعلانه الدائم عن تواضعه.

فكيف بعالم مثل ابن تيمية بأن يقارن بين شئ دائـــم هـــو محبـــة الله وعرض زائل وهو عسر البول؟! بأى ميزان يزن به المحبة الإلهية.

فمن ادعى أن له حالاً مع الله اسقط عنه التكليف، وهو حاضر العقل، فهو كاذب، ومن يسرق ويزنى أحسن حالاً ممن يقول ذلك ولو رأيتم الرجل قد تربع فى الهواء، ومشى على الماء، فلا تلتفتوا إليه حتى تنظـــروه عنـــد الأمر والنهى، فإن كان عاملاً بالأمر، مُجتنباً لما نُهى عنه فاعتقدوه.[٢] وقيل له: إنا نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة، فقال: احمدوا الله على أن زيـــن جارحة من جوارحكم بذكره.[٣] فإن القلوب أوعية، فإذا امتلأت من الحـــق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح. وقال له رجل: أوضنى. فقال: أمـــت نفســـك حتـــى تحيا.[٤] ويرى سَمنون أن المجاهدة تكون برفض ما تهواه النفس من أمـــان، وإلزامها بما يشق عليها، وليس أشق على النفس الأمارة، من أمور العبادة! فعلى السالك المحب أن يبدد أهواء نفسه وتعلقاتها، بكل شديد من العبـــادات، حتى تفيق من غيها وتلتذ بالطاعات وتصبح التكاليف الشـــرعية فـــى مقـــام المحبة، فليس بها أى معاناة أو مشقة، فكيف يكون؟! والقلب مفعـــم بحـــب حقائق الإيمان. وقد كان سَمنون دوماً يقهر هوى النفس بإذابتها على مشعل

(١) د/ عبدالفتاح فؤاد، ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى، دار الوفاء، ط٤، الاسكندرية، ٢٠٠٦م.
(٢) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٥٧٤.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٦٣٢.
(٤) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٢٩١.

العبادة، فكان يقول: عن خلف بن الحسن العبادانى قال: سمعت سَمنوناً يقول: أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه، وأول هجران العبد الحق مواصلته لنفسه. (١) بالإضافة أنه كان يقوم الليل بطوله عابداً متهجداً وقد صحت الروايات فى ذلك، وقيل عنه أيضاً أثناء تأدية فريضة الحج وصل إلى الفيد – وهى بلد تقع فى نصف طريق مكة من الكوفة – طلب منه أهل الفيد أن يعظهم، فصعد المنبر، وشرع فى الكلام، ولم يجد مستمعين، فنظر إلى قناديل المسجد وخاطبها، وقال: أقول لكم. فاضطربت القناديل، وتحركت، ووقع بعضها على بعض وانكسرت.(٢)

فإن البلاء عند سَمنون يقوى القلب واليقين ويضعف النفس والهوى، ويحقق الايمان ومحبة الله. ولا يخرج المُبتلى عن ثلاثة أحوال؛ الأول أن يكون ابتلاء الله له عقوبة ومقابلة لمعصية اقترافها وعلامته عدم الصبر والشكوى. والثانى ابتلاء للتكفير والامتحان، وعلامته الصبر الجميل دون جزع ولا شكوى، أما الابتلاء الثالث، فيكون لرفع الدرجات؛ وذلك ما يدخل فى باب الرضا والمحبة. (٣) لهذا لم تكن المحبة عطية أو هبة سهلة المنال. وإنما لها شروط وعقبات، فالمحب لا يخبئ عن محبوبه شيئاً، ويؤثره على كل شئ، ... فشرط حب الرسول الفقر، وشرط حب الله عز وجل البلاء. يا طوبى لك إن وافقت الحق عز وجل وأحببته، ويحك قد ادعيت محبة الله عز وجل. أما علمت أن لها شرائط؟ أن لا تسكن إلى غيره، وأن تستأنس به، ولا تستوحش معه. اذا سكن حب الله قلب عبد أنس به وأبغض كل ما يشغل عنه، تب من دعواك الكاذبة هذا شئ لا يجئ بالتخلى والتمنى والكذب

(١) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٣١.
(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٧٠
(٣) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٠.

والنفاق والتصنع، تب واثبت على توبتك فليس الشأن فى توبتك الشأن فى ثبوتك عليها.(١)

الصوفية وعلى رأسهم سَمنون جعلوا من المحبة حلاً لكل شئ، فالحب عند سَمنون هو قلب الشريعة والدين النابض، هو الذى يجعل الإنسان قابلاً أن يكون نورانياً عابداً مخلصاً لله فى العبادة بعيداً عن النفاق والرياء، فمن امتلأ قلبه بالمحبة فهو مملوء بالنور الإلهى، لهذا ارتبط الحب والمحبة بطريق الصوفية، فهم جاعلون منه حلاً وليس إشكالاً. ألا يشعر المحبون بأن الحب هو تلك النجمة الوضاءة التى تضئ السبيل أمام كل زورق تائه؟ ألا يحس العاشقون بأن الحب هو تلك اللؤلؤة الفريدة التى تسطع بين سائر الانفعالات البشرية؟ ألم يقل بعض الكُتاب: إن الحب هو الألف والياء فى قصة الحياة، إن لم يكن هو القيمة الوحيدة التى تخلع على سائر القيم كل ما لها من قيمة؟ بل ألا تدلنا التجربة نفسها على أن الانسان حين يحب، فإنه يشعر بأنه كل حى، كل متكامل، كل ينبض بالحياة ويفيض بغبطة الحياة؟ ألا تظهرنا خبرتنا الشخصية على أن الحياة لا تبدو جميلة، عذبة رقيقة، رائعة، ساحرة، اللهم إلا من خلال عينى الحب؟ ألسنا نحس حين يرتفع عنا الحب بأن أحلامنا وأفكارنا، وآمالنا، ومقاصدنا، وغاياتنا، قد أصبحت خلواً من المعنى، صفراً من كل قيمة؟ إذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الحب هو مركز الحياة والمعنى، ومنبع السعادة والقيمة؟ أليس الأدنى إلى الصواب أن نقرر أن الحب جواب على إشكال الوجود الانسانى؟ (٢)

(١) عبدالقادر الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة، د.ت، ص٢٢.

(٢) د/ زكريا إبراهيم، مشكلة الحب، مرجع سابق، ص٢٢.

ثالثاً : أقسام المحبة الإلهية وعلاقتها بنظرية المعرفة عند سَمنون:

(أ) أقسام المحبة فى القرآن والسُنة:

للمحبة أقسام ودرجات، وبما أن الكلمة لها أصول فى القرآن والسنة، وجب علينا أن ننظر كيف قسم القرآن والسنة هذه الكلمة؟ فلا يتبادر إلى الذهن أن الصوفية عموماً وسَمنوناً خصوصاً قد ابتدعوا الحديث عن هذه المحبة، إذ تستند هذه الكلمة إلى شواهد قرآنية صريحة: فقد ذكر الله تعالى الحب المتبادل بين العبد والرب فى قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ " [المائدة:٥٤].

وهذه الآية القرآنية الشريفة تشير إلى نوعين من المحبة الأول محبة العبد للرب وفيها أيضاً درجات والثانية: محبة الله للعبد وبالتالى فإن هذه المحبة بين العبد والرب ليست من طرف واحد وإنما هى محبة متبادلة. ويفسر القشيرى قوله تعالى: "يحبهم ويحبونه" أن هذا دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إما بمعنى الرحمة عليه أو اللطف والإحسان إليه والمدح والثناء عليه وإرادته لتقريبه كما أن رحمته إرادته للإنعام ومحبته ارادته للإكرام. أما محبة العبد لله سبحانه فهى حالة لطيفة يجدها فى قلبه تحمله تلك الحالة على إيثار موافقة أمره وترك حظوظ نفسه وإيثار طاعة الله وحقوقه سبحانه وتعالى.[1] وهذا التفسير للقشيرى يكذب به كثير من أهل الكلام والرأى الذين أنكروا جنس محبة الله وإرادته معتمدين على أن المحبة والإرادة والرضا والمشيئة شئ واحد، ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم وهو إرادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله، فاعتقدوا أن المحبة والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم. فالموجود لا يحب ولا

(١) القشيرى، لطائف الإشارات، مصدر سابق، ص١٠٣.

يراد، والقديم الأزلي لا يحب ولا يراد، والباقى لا يحب ولا يراد. فأنكروا أن يكون الله محبوباً أو مراداً. وهذا مخالف لما جاء به الكتاب والسُنة واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين إن الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسُنة. بل لا شئ يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده.

كما أن هناك آيات فى القرآن تصف المحبين لله ببعض الصفات مثل العزة والتواضع للمؤمنين والجهاد فى سبيل الله وعدم الخوف من لوم اللائمين ... كما أن القرآن الكريم قد تضمن أيضاً ذكر بعض صفات يحبها الله فى عباده. فقد ذكر الله تعالى المحبة فى مواضع من كتابه، فقال: " إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" [آل عمران:٣١]. وقال فى موضع آخر: " يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ" [البقرة:١٦٥]. فذكر(١) مرة محبته قبل محبتهم، ومرة ذكر محبتهم له ومحبته لهم، وفى مرة ذكر محبتهم له. كما وصف الله نفسه بأنه "الغَفُورُ الوَدُودُ" [البروج:١٤] وبانه قريب من عبده إذا دعاه. وبأنه سميع الدعاء، وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وغير ذلك من الآيات التى تفيض حباً وعطفاً وحناناً ورحمة بالعباد، بل إنه تعالى أراد أن يكون حبه لعباده حظاً مشتركاً بينهم جميعاً لا تستأثر به أمة دون أمة ولا طائفة دون طائفة فقال فى معرض لوم اليهود والنصارى " وقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ" [المائدة:١٨] فهو ينكر عليهم أنهم يقصرون هذا الوصف على أنفسهم فى حين أن كل مؤمن خليق به.(٢) وفى القرآن آيات كثيرة تشير إلى أن الله يحب كذا ولا يحب كذا. كقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً" [الصف:٤] وقوله: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) الطوسى، اللمع، مصدر سابق، ص٥٣.

(٢) د/ أبوالعلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الاسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٢٠٩.

التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ" [البقرة: ٢٢٢]. وقوله: " إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ" [البقرة:١٩٠] وقوله: " واللَّهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ" [المائدة:٦٤].

والأحاديث النبوية الشريفة رسمت أيضاً ووضحت شكل المحبة في الدنيا والآخرة أى تجاه الأشخاص وتجاره رب الأشخاص، فعن أنس عن النبى – صلى الله عليه وسلم– قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".(١) وعن أنس أيضاً عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار".(٢) ويوضح النووى ذلك فيقول: إن محبة الله عبده هى رحمته له ورضاه عنه وإرادته له الخير وأن يفعل به فعل المحب من الخير وأصل المحبة فى خلق العباد ميل القلب والله تعالى منزه عن ذلك. ففى هذه الأحاديث فضل المحبة فى الله تعالى وأنها سبب لحب الله تعالى العبد. فعن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أن رجلاً زار أخاً له فى قرية اخرى. فأرصد الله له، على مدرجته، ملكاً. فلما أتى عليه قال: أين تُريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تُربها؟ قال: لا. غير أنى أحببته فى الله عز وجل. قال: فإنى رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه". (٣)

ومحبة العبد لربه فهى تعظيم له، وطلب التقرب إليه وذلك بطاعته، كما أن الله يحب عباده المخلصين برضائه عنهم، واحسانه إليهم، ومثوبتهم على أعمالهم. ولا تعرف حقيقة المحبة إلا بالمحبة نفسها ولا تعرف أيضاً إلا بمعرفة شروطها وأسبابها، وبدون ذلك لا يمكن التحقق من المقصود منها،

(١) صحيح البخارى، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص١١.
(٢) نفس المصدر، باب حلاوة الإيمان، ص١٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل الحب فى الله، ص١٠١.

بمعنى عما إذا كانت لله أو لشئ آخر. أى أن هذا الميل القلبى لا يكون إلا لله من غير اصطناع أو تكلف. (١)

إذن نحن أمام محبة العبد لربه ومحبة الله لعبده، فمحبة العبد لربه، فهى صفة تظهر فى قلب المؤمن المطيع بمعنى التعظيم والاكبار ليطلب رضاء المحبوب، ويصير بلا صبر فى طلب رؤيته، وقلقاً فى الرغبه فى قربه، ولا يسكن إلى أحد دونه، ويعتاد ذكره، ويتبرأ مما سوى ذكره، وتحرم عليه السكينة، وينفر منه السكون، وينقطع عن جميع المألوفات والمستأنسات، ويعرض عن الأهواء، ويقبل على سلطان المحبة ويطيع حكمه، ويعرف الحق تعالى وتقدس بنعوت الكمال. (٢) فقال أبوالفضل بن عبدالسميع الهاشمى: سمعت سَمنوناً يقول:

امستوحش انت مما جنيت فأحسن إذا شئت واستأنس

وقال: اسفاً عليك وحسرة وتلهفاً ألا أكون بحيث ما ترضانى. (٣)

بل إن أصل التوحيد ثلاثة أشياء: الخوف والرجاء، والمحبة. فزيادة الخوف من ترك الذنوب لرؤية الوعيد، وزيادة الرجاء من اكتساب الخير لرؤية الوعد، وزيادة المحبة من كثرة الذكر لرؤية المنة. فالخائف لا يستريح من الهرب، والراجى لا يستريح من الطلب، والمحب لا يستريح من ذكر المحبوب. فالخوف نار منور، والرجاء نور منور، والمحبة نور الأنوار. (٤) أما محبة الحق تعالى للعبد هى ارادة الخير له ورحمته به. والمحبة تصبح اسم من أسماء الارادة مثل الرضا، والسخط والرأفة وما شابه ذلك، وكل هذه الأسماء لا تليق إلا لارادة الحق تعالى، وهذه الارادة صفة قديمة له يريد بها أفعاله. وفى الجملة، فإن محبة الله للعبد هى أن ينعم عليه كثيراً، ويثيبه فى

(١) د/ حسن الشرقاوى، ألفاظ الصوفية ومعانيها، مرجع سابق، ص٢٨٠.
(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥١.
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٧٠.
(٤) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٤٤٩.

الدنيا والآخرة، ويؤمنه من محل العقوبة، ويعصمه من المعصية، ويكرمه بالأحوال الرفيعة والمقامات السنية، ويقطع سره عن الالتفات إلى الغير، ويوصل إليه العناية الأزلية حتى يتجرد من الكل، وينفرد لطلب رضائه، وحين يخص الحق تعالى العبد بهذه المعانى فانهم يسمون تخصيص ارادته: المحبة. (١) وهنا تصبح المحبة حملاً ثقيلاً، اثقل من الجبال، فعندما سأل ابراهيم الرقى عن: هل يبدى المحب حبه؟ وهل يطيق كتمانه؟ فأنشد: حملتم جبال الحب فوقى وإننى لأعجز عن حمل القميص وأضعف.(٢) فهنا المحب يقع بين الاباحة بهذا الحب فيصير مرائى والسكوت عن هذا المحب فينكوى بناره، فإن للحب شريعة باقية على الزمان، وهى شريعة مسطورة على جدران الوجود، وفيها كلمات صريحة عن مصاير المحبين، وهى تعلن ان المحب لن يكون أبداً من السعداء.

فعن سعد بن هشام، عن عائشة. قالت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه". فقلت: يا نبى الله! أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت. فقال: "ليس كذلك. ولكن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه".(٣)

فأهل السعادة – وسَمنون يمنى نفسه أن يكون منهم – يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعد لهم ويحب الله لقاءهم أى فيجزل لهم العطاء والكرامة وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه ويكره الله لقاءهم أى يبعدهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك بهم وهذا

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، مصدر سابق، ص٥٥٠.

(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص٣٠.

(٣) صحيح مسلم، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه، ص٩.

معنى كراهته سبحانه لقاءهم وليس معنى الحديث أن سبب كراهة الله تعالى لقاءهم كراهتهم ذلك ولا أن حبه لقاء الآخرين حبهم ذلك بل هو صفة لهم.

وقال أبو الحسن عمر أنشد سمنون معبراً عن ذلك قائلاً :

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى وآخر يرعى ناظرى ولسانيا

فما خطرت من ذكر غيرك خطرة على القلب الا عرجا بعانيا. (١)

ويصل سَمنون راضياً ساكناً القلب إلى محبة الله سبحانه وتعالى. إنه اختار له الأفضل فيرضى له، وهو تارك السخط والتذمر والكره. قال تعالى: " أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ" [الزمر:٢٢]. فإذا تمكن النور من الباطن، اتسع الصدر، وانفتح عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى، فينتزع التضجر. لأن انشراح الصدر يتضمن حلاوة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضا عند المحب الصادق. لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره. فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه. قال تعالى: " رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ" [البينة:٨].(٢)

وهنا تعلن السماء والأرض محبتها لهذا العبد، فعن أبى هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا أحب عبداً، دعا جبريل فقال: إنى أحب فلاناً فأحبه. قال فيحبه جبريل. ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء. قال ثم يوضع له القبول فى الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه. قال فيبغضه جبريل. ثم ينادى فى اهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض. (٣)

البغض هنا بمعنى إرادة عقابه أو شقاوته ونحوه وحب جبريل والملائكة يحتمل وجهين: أحدهما: استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم.

(١) البغدادى، تاريخ بغداد، مصدر سابق، ص٣٢٤.

(٢) أبوبكر الرازى، منارات السائرين، مصدر سابق، ص٣٧٢.

(٣) صحيح مسلم، باب إذا أحب الله عبداً، حببه إلى عباده، ص١٥١.

والثانى: أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين وهو ميل القلب إليه واشتياقه إلى لقائه وسبب حبهم إياه كونه مطيعاً لله تعالى محبوباً له ومعنى يوضع له القبول فى الأرض أى الحب فى قلوب الناس ورضاهم عنه فتميل إليه القلوب وترضى عنه وقد جاء فى رواية فتوضع له المحبة.

نستطيع أن نقول بأن المحبة على وجهين: محبة الإقرار وهو للخاص والعام ومحبة الوجد من طريق الإصابة فلا يكون فيه رؤية النفس والخلق، ولا رؤية الأسباب والأحوال بل يكون مستغرقاً فى رؤية ما لله وما منه. وهذان النوعان من المحبة لهما طريقان موصلان إليهما: الأول: من الله إلى العبد وهو الذى يوصلنا إلى محبة (الوجد) ولنسميه الطريق الوهبى. والثانى: من العبد إلى الله وهو الذى يوصلنا إلى محبة (الإقرار) ولنسميه الطريق الكسبى. والمحبة هنا عند الصوفية طريق للوصول إلى الله تعالى، وكما رأينا وردت فى الكتاب العزيز آيات كثيرة عن محبة الله لعباده ومحبة العبد لربه .. وكان لا بد للصوفية من التوقف أمام المحبة وتعميق أغوارها، فوصلوا إلى منتهى المنتهى فيها. ولكن واحداً بعينه من الصوفية هو الذى تخصص فى المحبة، واختص باسم المحب وهو سَمنون.[1] لدرجة أنه يقول: "إذا بسط الجليل غداً بساط المجد دخل ذنوب الأولين والآخرين فى حاشية من حواشيه، وإذا أبدى عيناً من عيون الجود ألحق المسئ بالمحسن".

واعتقد أن سَمنون لم تكن محبته لله على درجات أو أطوار، ولهذا كانت المحبة عنده حالاً ولم تكن مقاماً، فقد كرس كل حبه إلى الله سبحانه وتعالى، فلم يكن فى شعره صدى للحب الانسانى، بل كل ألفاظه وأشعاره بمعانيها الرقيقة وعمق خيالها تتجه نحو الذات الإلهية أن حب سَمنون بدايته ونهايته لله وحده سبحانه وتعالى فهو ناشئ عن مطالعة جمال الذات المطلق: فهو حب خاص، وحال ليس لكسب العبد فيه مدخل. فإن حبه حال قديم

(١) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٦٢.

موهوب له فى الأزل، وأنه من هذه الناحية لم يحصل عليه من طريق الكسب. فإن العبارة عن المحبة ليست هى المحبة، لأن المحبة حال، ولا يكون الحال قالا أبداً. وإذا أراد أهل عالم أن يجلبوا المحبة لما استطاعوا، وإذا تكلفوا لدفعها لما استطاعوا، لأنها من المواهب لا من المكاسب. وإذا اجتمع كل العالم أن يجلبوا المحبة لشخص يطلبها لما استطاعوا وإذا أرادوا أن يدفعوها عن شخص هو أهل لما استطاعوا. ولعجزوا ، لأنها إلهية والأدمى لاه، ولا يستطيع اللاهى إدراك الإلهى.(١)

إذن العبارة منقطعة عن المحبة، لأن العبارات صفة المعبر، والمحبة صفة المحبوب، فعبارة هذا لا تستطيع إدراك حقيقة ذاك. فقد نقل أن سَمنوناً تزوج فى آخر عمره، متابعة للسنة، وولدت له بنت، وبلغت إلى ثلاث سنين، ومال إليها قلبه يوماً، فرأى القيامة تلك الليلة فى المنام، ورأى أعلاماً منسوبة لكل قوم، ثم رأى علماً نُصب، ونوره يضئ العرصات، قال سَمنون: لمن هذا العلم؟ قالوا: للذين قال الله تعالى فيهم: "يحبهم ويحبونه" [المائدة:٥٤] فأدخل سَمنون نفسه فى المحبين تحت العلم، فجاء مَلَك ومنعه، وأخرجه عنهم، فاستغاث سَمنون وبكى، وقال: لِمَ تُخرجنى من هذا القوم؟ قال: لأن هذا علم المحُبين، وأنت لست منهم. قال سَمنون: كيف لا، ويُسمونى سَمنون المُحب، والله تعالى مطلع على ضميرى. فسمع هاتفاً يقول: يا سَمنون، كنت من المحبين، لكن مذ مال قلبك إلى الصبية محونا اسمك من جريدة المحبين. فسَمنون فى النوم بكى ودعا، وقال إلهى، إن كانت الصبية قاطعة للطريق بينى وبينك، فارفعها بلطفك من اليمين، وخذها منى، وانتبه من النوم، فسمع صياحاً وعويلاً، فسأل عنها، قالوا: وقعت البنت من طرف السطح، وماتت.(٢)

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٣.
(٢) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٤٩٩.

رغم تشككى فى هذه الرواية لأننى لم أجدها إلا عند فريد الدين العطار فى "تذكرة الأولياء" والعطار رجل جامح الخيال لا يمكن أن يُطمأن إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى. إلا أننى اعتبر هذه الرواية من قبيل الرمز، فسَمنون رفض الحب الحسى أو الحب القائم على الشهوات وحب الدنيا وهذه حقيقة، فكما رأينا وردت ألفاظ الحب والمحبة فى القرآن الكريم عشرات المرات لتشير فى جملتها إلى حب محمود وهو حب الله لعباده وحب العباد الخالص لله، والآخر حب مذموم، وهو حب الشهوات الذى يقترن غالباً بالضلال، كما فى قوله تعالى: " وقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" [يوسف:٣٠]. ولقد تعلق سَمنون بالنوع الأول من المحبة، وجعل من تلك المحبة الربانية أصلاً من أصول الطريق؛ ونبه فى الوقت ذاته إلى خطورة حب الدنيا والشهوات، باعتباره باباً لكل معصية.

ان المحبة عند سَمنون موضوع فريد لقد أصابنى بالجنون، فعلى الرغم من اعتراف سَمنون بمحبة العبد لربه إلا أنه يقول بأن هذه المحبة وهبيه من الله، فهى عنده حال وليست مقام، كما أن هذه المحبة ليست لها درجات. أما النوع الثانى من المحبة وهو محبة الرب لعبده فهى مرفوضة عند سمنون تماماً وقال النورى: سألت سَمنون عن المحبة، فقال لى: عن محبة الله تعالى إياك تسأل، أو عن محبتك لله تعالى، قال: فقلت: عن محبة الله لى. فقال: لا تطيق الملائكة يسمعون ذلك، فكيف أنت؟ ثم قال: لقد تكلمت أمس مع الخضر، والملائكة يسمعون كلامى، ويستحسنون قولى، وسمع الله كلامى، فلم يعب علىّ، ولو عاب سبحانه علىّ لأخرسنى. (١)

اذن سَمنون وقف موقف وسط بين الرافضين للمحبة بأقسامها وبين المعددين لدرجات المحبة، فلقد انكرت بعض طوائف المسلمين أنه يحب

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٤٤٢.

ويحب على الحقيقة، وقالت إن ما ورد فى الشرع مما يشير إلى ذلك لا يعدو أن يكون ضرباً من المجاز، وأن الله لا يحب ولا يحب لأن المحبة لها من اللوازم ما لا يليق[١] بالجناب الإلهى كالشوق والأنس والمناجاة والمشاهدة وتبادل اللذة ونحو ذلك من صفات المخلوقات التى يجب أن يتنزه الله عنها. وأقصى ما ذهبوا إليه من التأويل هو ان قالوا إن المراد بمحبة العبد لله طاعته ودوام خدمته، وإن المقصود بمحبة الله للعبد عطفه ورحمته. وأصبحت محبة الحق التى أخبرنا بها، من جملة الصفات السمعية [٢]، مثل الوجه واليد والاستواء، التى لو لم يكن الكتاب والسنة ناطقين بها لكان وجودها مستحيلاً للحق تعالى، من وجهة العقل، فنحن –أى المتكلمين– نثبتها ونؤمن بها، ولكننا نتوقف فى تصرفها. ومراد هذه الطائفة هو أنهم لا يجيزون هذا اللفظ على اطلاقه للحق تعالى.

وكان هناك رأى آخر لبعض الصوفية ترى المحبة من العبد إلى الرب على ثلاثة أقسام[٣]: محبة إنسانية. ومحبة إيمانية. ومحبة ربانية. فأما المحبة الإنسانية على نوعين، الأول: محبة الجنس للجنس، وتلك ميل وتوطين للنفس، وطلب ذات المحبوب عن طريق الممارسة والملاصقة. والثانى: محبة الجنس لغير الجنس، وهذه تتطلب القرار مع صفة من أوصاف المحبوب يطمئن إليها ويأنس بها، مثل سماع كلامه أو رؤيته. وهنا تمر النفس بمراحل للوصول إلى الكمال فى المحبة. المرحلة الأولى: مرحلة ترويض النفس أو مرحلة الخطو: وفيها يخطو المحب خطوتين: الأولى: محاسبة النفس، والأخرى: رعايتها. والمرحلة الثانية: مرحلة الرقى النفسى أو الصعود: وفيها نصعد درجتين: الأولى: مخالفة النفس، والأخرى: إذلالها. والمرحلة الثالثة: مرحلة العلو النفسى أو مرحلة الإنطلاق: وفيها ننطلق

(١) د/ أبو العلا عفيفى، التصوف، مرجع سابق، ص٢١٠.
(٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٠.
(٣) ابوبكر الرازى، منارات السائرين، مصدر سابق، ص٤٦٦.

انطلاقتين: الأولى: إلغاء إرادة النفس، والأخرى: أماتتها عن مراداتها أو تركها على الأقل. والمعتقدون فى تلك المحبة يؤكدون على فكرتين الأولى: انعام الحق سبحانه على المحب، ورؤية الانعام والاحسان تقتضى محبة المنعم والمحسن. والثانية: وضع كل الانعام فى محل الحجاب، بسبب غلبة المحبة، ويكون طريقهم إلى المنعم من رؤيتهم للمنعم.(١) بل عليهم أن ينفوا الوجود عن قلوبهم، بل عن خواطرهم؛ لتمتلئ كل جوارحهم بذكر الله وحب الله، وجلال الله. إنهم قوم حجبتهم المحبة عما سوى الله فلم يروا فى الكون سواه، وهذا ليس معناه أن الكون قد زال أو فنى، وإنما معناه أن القلب المحب قد استغرقه جلال محبة الأعظم فلم ير إلا إياه. ولعل أظهر ما كانت تمتاز به حياة سَمنون النفسية هى الاستغراق، لدرجة أنه كان لا يشعر بمن حوله من الأشخاص ولا بما يحيط به من الأشياء. فقد حدثنا أبوالطيب العكى: ذكر لى أن سَمنون كان جالساً على شاطئ الدجلة، وبيده قضيب يضرب به فخذه، حتى بان عظم فخذه وساقه وتبدد لحمه. (٢)

الفرق بين حب المؤمن وحب الصوفى، فحب المؤمن تغلب عليه الصفة النفعية، فالمؤمن يحب الله – أى: يطيعه– ليدخل الجنة ويسلم من النار، وقد رأى الصوفية أن يجردوا الحب من الصفة النفعية فيجعلوه خالصاً لذات الله، بغض النظر عن رجاء الثواب، والخوف من العقاب. فمحبة العبد لله تعظيم يحل الاسرار فلا يستجيز تعظيم سواه، ومحبة الله للعبد هو ان يبليه به فلا يصلح لغيره. وهو معنى قوله تعالى: "واصطنعتك لنفسى" [طه:٤٣]. ومعنى لا يصلح لغيره أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الاحوال.(٣)

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، مصدر سابق، ص٥٥١.

(٢) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٦٢.

(٣) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٨٠.

هذا القسم من المحبة الالهية ينقسم إلى حب عام، وحب خاص، الحب العام يفسر بامتثال الأمر، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء، هبنى وجدتك بالعلوم ووجدها من ذا يجدك بلا وجود يظهر. (١)، وهذا الحب من المقامات، لأن لكسب العبد فيه مدخلاً؛ والحب الخاص هو حب الذات الناشئ عن مطالعة الروح وفيه السكرات، وهو اصطناع من الله الكريم لعبده، واصطفاء له. هذا الحب الخاص من الأحوال لأنه محض موهبة، ليس للكسب فيه مدخل.(٢)

وسَمنون مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود خلقه. محبة سَمنون فى القلب متعلقة بين الهمة والأنس، فى البذل والمنع، على الإفراد. وبالتالى أصبحت المحبة هى أول أودية الفناء.(٣) فإن كل من يتصور الفناء عند سَمنون أنه عن شئ يصح بحجاب ذلك الشئ يكون على خطأ، فليس الأمر كأن يقول الآدمى حين يحب شيئاً: اننى باق بذلك، وعندما يكره شيئاً يقول: أننى فان عنه، لأن هذين صفة الطالب، وليس فى الفناء محبة وعداوة، ولا فى البقاء رؤية جمع وتفرقة.(٤)

فإن فناء الذات بمعنى محوها من الوجود وحلول الإلهية محلها، فأمر ينكره سَمنون. يقول القشيرى: "وإذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق".(٥) إذن محبة سَمنون تبقى حالاً. أما الامام أبوحامد الغزالى حاول أن يجد أساساً عقلياً لحب الإنسان لله، فجعل من المحبة لله غاية قصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها، فالمحبة هنا بالتعليم والاكتساب، وليس هبه أو منحه من

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، مصدر سابق، ص٤٧٠.
(٢) التفتازانى، مدخل إلى التصوف الاسلامى، مرجع سابق، ص١١٢.
(٣) الهروى، منازل السائرين، مصدر سابق، ص٨٨.
(٤) الهجويرى، كشف المحجوب، مصدر سابق، ص٤٨٢.
(٥) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٣٦.

الله فهى تأتى بعد المعرفة، فالإمام لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل هو من خاصية الحى المدرك.(١) وأبوحامد فى مثل معراج السالكين، ونحوه يشير إلى هذا فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام وإسلام مشوب بفلسفة، ولهذا كان فى كتبه كالاحياء وغيره يجعل المعلوم بالأعمال، والأعمال كلها إنما غايتها هو العلم فقط، وهذه حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة، وكان يُعَظِم الزهد جداً ويعتنى به أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذى جاءت به الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فإن هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده. وترك محبة المخلوق مطلقاً إلا إذا أحبه الله فيكون داخلاً فى محبة الله بخلاف من يحبه مه الله فإن هذا شرك.

لذلك يقسم الغزالى المحبة إلى أقسام خمسة.(٢) وهذه الأنواع لا يتصور كمالها ولا اجتماعها إلا فى حب الله. أما أنواع المحبة فهى: محبة الوجود، محبة من يرجع إليه دوام الوجود: محبة المحسن إلى الغير: محبة كل ما هو جميل فى ذاته: محبة من كان بينه وبين المحبوب مناسبة.

وهذا التصور ينكره تماماً أو عكس ما يقول به سَمنون، فهناك الحجارة والحصى التى تسبح وتذكر الله، وهناك من الحجارة من يتفجر الماء، وهناك قلوب أشد قسوة وصلابة من الحجارة. قال تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ". [البقرة:٧٤]

فهذه المحبة الإنسانية لرب العلمين تبدأ بمحبة تقطع الوساوس وتلذ الخدمة وتسلى عن المصائب. وهى محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة للفاقة، ثم تمر المحبة على إيثار الحق على

(١) الغزالى، احياء علوم الدين، كتاب المحبة، مصدر سابق، ص١٣٣٨.
(٢) د/ أبوالعلا عفيفى، التصوف، مرجع سابق، ص٢١١.

غيره وتلهج اللسان بذكره، وتعلق القلب بشهوده. وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر فى الآيات والارتياض بالمقامات. ثم محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الاشارة ولا تنتهى بالنعوت. وهذه المحبة هى قطب هذا الشأن وما دونها محاب نادت عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول.(١) اذن سبب المحبة بالنسبة للعوام دوام إحسانه وكثرة نعمه، وبالنسبة للخواص صفات الله سبحانه وتعالى الكاملة وأسمائه الحسنى. فإن المحبة الإنسانية على نوعين: محبة روحانية، ومحبة نفسانية وهى لعامة الناس وهى ما قال تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ والْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا" [آل عمران:١٤].

وأما المحبة الإيمانية: فهى من نتائج نور الإيمان. فمن ازداد من نور الإيمان ازدادت محبته. وقد اخبر الله تعالى عن المحبة الإنسانية والإيمانية بقوله: " ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ". [البقرة:١٦٥]. وعلامة هذه المحبة استيلاء محبة الموافقة على القلوب وانزعاج محبة المخالفة عنها واستطابة روح المؤانسة " أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُونَ". [المؤمنون:٦١] قد اشتعلت قلوبهم بلزوم دوام ذكر المحبوب عن اللذات، واشتعلت نار المحبة على دواعى الشهوات فانحسمت مواد المخالفات وانقطعت هواجس التبعات.(٢) وأما المحبة الربانية، فهى التى صفة الله تعالى المنعكسة فى مرآة قلوب المحبين. عند قوله تعالى: "يحبهم ويحبونه" وعلامة المحبة فى الظاهر متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ملازمة الفرائض ومداومة النوافل.

(١) أبوبكر الرازى، منارات السائرين، مصدر سابق، ص٢٢٤.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٤٤٦.

عن قتادة عن أنس قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".[١] وكان يقول سَمنون[٢]: مضى الوقت فصار الوقت مقتاً، وقتك خراب وقلبك فى المحراب، ومن كانت عبادته عناء كانت ثمرته ضناء. فإن سَمنون يربط بين المحبة الإلهية والعبادة، وذلك للإشارة إلى الإفراط فى الميل أو المبالغة فى العشق. فالمحب يعتبر نفسه بمثابة "عبد" يأتمر بأوامر المحبوب أو عابد يطيع محبوبه. أما فى الباطن فإن المحب لا يؤثر على الله غير الله، ولا يكون متولى أمره إلا الله، والله غالب على أمره والتفاوت بين القوم فى المحبة على قدر العناية من الله تعالى، وكثرة الرعاية من العبد، وتعاهد المعرفة، وتصفية اليقين والصدق فى الطلب. وعلاقة تلك المسارعة والمبادرة والحث على السير وحسن الالتجاء إلى الله تعالى فى كل حال. عن أبى هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى. اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى".[٣] هكذا إذا أحببت الحق عز وجل وأحبك كفاك شر الدنيا والشهوات واللذات والنفس والهوى والشياطين، فتأخذ أقسامك من غير ضرر ولا كدر.[٤]

(ب) علاقة المحبة بالمعرفة عند سَمنون:

قد تكلم الصوفية فى الفرق بين المعرفة والمحبة، فقال قائل منهم: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. وقال المحققون: المحبة استهلاك فى لذة، والمعرفة شهود فى حيرة وفناء فى هيبة.[٥] وكلما ازداد العارف معرفة بالله كان أكثر محبة. كما أن طريق المعرفة هو طريق الشريعة، وللمعرفة غاية أخلاقية، وهى أن تتشبه الانسانية، بأخلاق الله على

(١) صحيح البخارى، باب حب الرسول من الإيمان، ص١١.
(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٣٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب فى فضل الحب فى الله، ص١٠١.
(٤) عبدالقادر الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مصدر سابق، ص٢٢٧.
(٥) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص١٦٢.

قدر الطاقة الانسانية. ولعل أول من تكلم فى المعرفة معروف الكرخى ت ٢٠٠ هـ وممن تحدثوا فى المعرفة أيضاً أبوسليمان الدارانى (نسبة إلى داران إحدى قرى دمشق) ت ٢١٥هـ ومن أقواله: "لا يزهد فى شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله فى قلبه نوراً يشغله دائماً بأمور الآخرة". (١)

وقال الجنيد المعرفة معرفتان معرفة تعرف ومعرفة تعريف (٢) معنى التعرف أن يعرفهم نفسه ويعرفهم الأشياء به كما قال إبراهيم عليه السلام (لا أحب الآفلين) [الأنعام:٧٦] ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته فى الآفاق والأنفس ثم يحدث فيهم لطفاً تدلهم الأشياء أن لها صانعاً وهذه معرفة عامة المؤمنين والأولى معرفة الخواص وكل لم يعرفه فى الحقيقة إلا به. فإن العارف: "من نطق عن سرك وأنت ساكت".(٣) أى أنه تعالى عرفنا بنفسه ودلنا على معرفة نفسه بنفسه فقام شاهد المعرفة من المعرفة بالمعرفة بعد تعريف المعرف بها. ومعناه أن المعرفة لم يكن لها سبب غير أن الله تعالى عرف العارف فعرف بتعريفه. فإن المعرفة على لسان العلماء هو العلم فكل علم معرفة وكل معرفة علم وكل عالم بالله تعالى عارف وكل عارف عالم وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ثم تنفى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريأً ومن المساكنات والملاحظات نقياً ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره

(١) ابن الجوزى، المنتظم، جـ١، تحقيق محمد عبدالقادر عطا وآخرون، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٢م، ص٢٢٥.

(٢) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٣٨.

(٣) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٢٨.

فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة. (١)

فالمُحب عارف معرفة حقيقية وهى أن الله موجود واحد أحد لا شريك ولا ند له، فمحبته لله صادقة، لأنه يعرف حقيقة من يحب، فالمحبة والمعرفة وجهان لعملة واحدة، لذلك وصف المشرك بالجاهل ووصف المؤمن بالعارف. وتعتبر مدرسة بغداد الصوفية هى التى غلب عليها طابع دراسة اللفظين المحبة والمعرفة، فنجد معروف الكرخى ت ٢٠٠هـ أو ٢٠١ هـ تبين لنا أقواله اهتمامه بلفظين المحبة والمعرفة. ويعتبر سَمنون هو من قدم المحبة على المعرفة، فقال: أصل الطريق إلى الله تعالى والقاعدة فيه إنما هو المحبة، وغير المحبة بالنسبة إليها هباء منثوراً. (٢) وكان ذو النون المصرى يقدم المحبة على المعرفة أيضاً، فيقول: المحبة أول الطريق إلى الله "بمعنى إنها باب الدخول إلى نهاية الطريق وهو المعرفة بالله ذوقاً وعقلاً".

وكذلك يحيى بن معاذ الرازى جعل المحبة سابقة على المعرفة حين قال: "الدرجات التى يسعى إليها أبناء الآخرة سبع: التوبة ثم الزهد ثم الرضا ثم الخوف ثم الشوق ثم المحبة ثم المعرفة".(٣)

تم نجد بعد ذلك الأكثرون من مشايخ الصوفية يقدمون المعرفة على المحبة، وأن شرط المحبة المعرفة. ووجدوا أن هذا التقديم منطقى وملائم لطبيعة كل من الحب والمعرفة: إذ لا يمكن أن نتصور أن إنساناً أحب إنساناً أو شيئاً دون أن يكون قد رآه أو سمع به على أقل تقدير. والرؤية والسماع طريقان من طرق المعرفة. فإن القلوب تحب من تعرفه، وتخافه، وترجوه، وتشتاق إليه، وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته، فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات، والإقرار بها امتنع منها بعد ذلك ما هو

(١) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٣٩.
(٢) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٤٩٨.
(٣) أبونعيم الأصفهانى، حلية الأولياء، ط١، مصدر سابق، ص٦٤.

مشروط بالمعرفة وملزوم لها، إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه ممتنع.(١)

فهذا أبويزيد البسطامى يقول: "محال أن تعرفه ثم لا تحبه" ومن العبارة يتضح أن المعرفة عند أبى يزيد سابقة على المحبة وأن المحبة نتيجة حتمية للمعرفة، وكذلك الشبلى حينما يقول: "قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة ومستبشرة إليه بموالاة المحبة" . (٢) فهو يقدم المعرفة على المحبة فالقلوب طائرة بالمعرفة أولاً ومستبشرة بالمحبة ثانياً. وربما يكون هؤلاء الصوفية قرءوا قديماً فيما قرءوا قول الحسن البصرى: "من عرف ربه أحبه" وقال هرم بن حيان: "المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه" فتأثروا بهم وقدموا المعرفة على المحبة. ولعلهم أيضاً أثروا فيمن جاء بعدهم من الصوفية المتأخرين كالإمام الغزالى الذى يقرر فى "إحياء علوم الدين" أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه.(٣)

والسؤال الذى يهمنا هو: لماذا أصر سَمنون على تقديم المحبة على المعرفة؟! إن المعرفة المتأخرة عن المحبة هى الأكمل والأتم من المعرفة المتقدمة على المحبة: لأن هذه المعرفة المتقدمة تتخذ موضوعها من أشياء معينة متكثرة فهى زائفة مشتتة وخادعة فى نفس الوقت، وتلك معرفة بشئ مطلق واحد قد انطوى فيه كل شئ. هذه المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عليه فلا يشهد غير الله عز وجل ولا يرجع إلى غيره فكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسنح له من أمر أو يستقبله من حال فالعارف رجوعه إلى ربه فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربه تعالى لم يكن راجعاً إلى قلبه وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له وفرق

(١) د/ محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض والحب الإلهى، مرجع سابق، ص٢٤١.
(٢) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص٣٤٣.
(٣) الغزالى، الأحياء، كتاب المحبة (جـ٤)، مصدر سابق، ص١٨٤٠.

بين من عاش بقلبه وبين من عاش بربه عز وجل. [١] فإن جميع الشر حب الدنيا، فإن مُحبها زعم بلسانه أنه يعبد ربه، وهو يعبد هواه، ودنياه بقلبه. [٢] فمن أحب عرف قطعاً الطريق الصحيح إلى الله وهو طريق العبادة.

ولقد أوحى الله تعالى إلى نبيه داود عليه السلام: من رفض الدنيا، وجميع ما فيها، ولم يفكر فى شئ منها، ولم يشغل قلبه بها ولا ذكرها، وفرغ قلبه لذكرى، واختارنى على جميع خلقى، وانقطع إلى عبادتى إلا كشفت الحجاب بينى وبينه، فإذا كشفت الحجاب بينى وبينه نظر بقلبه إلى نظر الناظرين، فأدنيته منى، وأريته كرامتى فى كل ساعة، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن جاع أشبعته، وإن عطش أرويته، فإذا فعلت ذلك به، أعميت نفسه عن الدنيا وأهلها، فما شئ أسر إليه ولا أقر لعينيه من النظر إلى، يستعجلنى القدوم علىَّ، وإنى أكره أن أميته؛ لأنه موضع نظرى من خلقى. يا داود، أنا حبيب من أحبنى، وجليس من جالسنى، ومؤنس من أنس بذكرى، فارفضوا الدنيا، وهلموا إلى كرامتى. [٣]

بل يصل سَمنون إلى أبعد من ذلك، فيقول: إن من يقدم المعرفة على المحبة ويدعى أنه عارف فهو فى قمة الجهل، لأن العبد يخلص فى المحبة أولاً، فيعرفه الله أو يسمح له بالمعرفة، فلا يعرفه إلا من تعرف إليه ولا يوحده إلا من توحد له ولا يؤمن به إلا من لطف له ولا يصفه إلا من تجلى لسره ولا يخلص له إلا من جذبه إليه ومعنى من توحد له أى أراه أنه واحد. [٤] فقد سئل سمنون عن قوله تعالى: "ومَكَرُوا مَكْراً ومَكَرْنَا مَكْراً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ" [النمل:٥٠]، هل يجوز أن يُنسب المكر إلى الحق تعالى؟ فأنشد يقول:

(١) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٩٠.
(٢) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٢٩.
(٣) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٢٨٥.
(٤) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٣٧.

ويقبح من سواك الفعل عندى وتفعله فيحسن منك ذاكا.

فقال له السائل: اسألك عن تفسر آية، فتجيبنى ببيت من الشعر! فقال له: من أى البلاد أنت؟ فقال: من الجبل فقال: أنت من الذين هم فى الناس كالكُرات فى البقل، يا جافى، إن الله تعالى آلى على نفسه أن لا يودع حكمته لعجمى القلب، لم أجبك بشعر عجزاً عن البيان؛ لكن أحببت أن أعلمك أن فى أقل الأشياء أدل الدلائل عليه تخيلتهم مع المكر به مكر منه بهم، إذ لو شاء منع. (١)

الحقيقة الوحيدة المعلومة هنا عند سَمنون هو ان الله هو المحبوب. والإله المستحق بالعبادة، فإن الإله هو المألوه الذى يستحق أن يؤله ويعبد، والتأله والتعبد يتضمن غاية الحب بغاية الذل. فسَمنون من صفوة الأمة وخيارها المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر والإستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهى محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذى قال فيه: "فبشر عِبَادِ(*) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" [الزمر:١٧-١٨]. (٢)

اعتقد بأن سَمنون يجعل من المحبة والمعرفة غاية واحدة، بل هما الاثنان بمعنى واحد، فلا أول ولا آخر أو متقدم ومتأخر بين المحبة والمعرفة، فتعريفه لكليهما يكاد يتطابق، فالمحبة هى ميل المحب إلى محبوبه بصفة دائمة وهيامه به وجدانياً هو الذى يؤدى إلى موافقة المحب لمحبوبه، وطاعته وإيثاره، بل قد يصل هذا الميل بالمحب فى بعض الأحيان إلى أن يمحو صفاته نهائياً ويتصف كلية بصفات المحبوب، والمعرفة تعنى معرفة

(١) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق، ص٤٣٩.

(٢) ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص٧١.

المحبوب كلية، فقد سئل سَمنون عن المحبة فقال: "صفاء الود، مع دوام الذكر".[١] وقال يحيى بن معاذ الرازى: "على قدر حبك لله يحبك الخلق".[٢] وسئل الجنيد عن المحبة فقال: "دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب".[٣] أما الحارث المحاسبى فيقول عن المحبة أنها ميلك إلى المحبوب بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وزوجك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً ثم علمك بتقصيرك فى حبه".[٤] وكذلك إبراهيم الرقى نسبة إلى مدينة الرقة على طرف الفرات. قال: "علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه".[٥] وقال رويم أحمد البغدادى عن المحبة: "الموافقة فى جميع الأحوال".[٦] عموماً فإن للمحبة وجوه، أحدها: إرادة المحبوب بغير سكون النفس، والميل، والهوى، وتمنى القلب، والاستئناس، ولا يجوز تعلق هذا كله بالقديم، ويكون للمخلوقات مع بعضها البعض، وللأجناس، والله تعالى متعال عن هذا كله علواً كبيراً. والثانى: بمعنى الاحسان وتخصيص العبد الذى يصطفيه، ويوصله إلى درجة كمال الولاية، ويخصه بأنواع الكرامات. والثالث: بمعنى الثناء الجميل على العبد. [٧]

فإذا كان حال تعريف المحبة عند غالبية الصوفية هو فناء الانسان عن نفسه، وعن أوصافه وحظوظه، وإنكار ذاته، وإيثاره لله على ما سواه، واعتبروا ذلك شروط أساسية ينبغى أن يتحقق بها المحب لكى يكون محباً صحت محبته. فإننا نجد مثل هذا يمكن أن يقال فى تعريفات المعرفة. فقد حدثنا القشيرى فى رسالته عن المعرفة فقال: "فبمقدار أجنبيته عن نفسه

(١) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٢.
(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٢٧١.
(٣) السلمى، الطبقات، مصدر سابق، ص
(٤) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٣٣.
(٥) انفس المصدر، ص٢٩.
(٦) نفس المصدر، ص٢٢٨.
(٧) نفس المصدر، ص٢٣٠.

تحصل معرفته بربه عز وجل ... وللمعرفة أمارات وإشارات منها "حصول الهيبة من الله وإطمئنان وأنس القلب بالله سبحانه وتعالى" فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته".(١) ثم يتسأل القشيرى: "هل يتأسف العارف على شئ غير الله عز وجل.. وهل يرى غيره فيتأسف عليه، فبأى عين ينظر إلى الأشياء فقال بعين الفناء والزوال. المحبة والمعرفة تمحوان من القلب ما سوى المحبوب وهو الله، فإن المحبة والمعرفة هدفهما واحد هو الله سبحانه وتعالى فقد قال النورى: "المحبة، هتك الأستار وكشف الأسرار"، وقال سهل بن عبدالله "المعرفة غايتها شيئان: الدهشة والحيرة".(٢)

وظاهر هنا من كلام القشيرى وتلك الأقوال، من مبدأ عام مشترك بين بعضها وبعض من ناحية، وبينها وبين ما ذكرناه آنفاً من أقوال فى المحبة من ناحية اخرى، من أوجه الشبه التى تكشف فى وضوح وصراحة عن أن مبدأ الفناء عن الشهوات والآفات والحواس، وإسقاط العلاقات بين الإنسان وبين نفسه من ناحية، وبينه وبين غيره من ناحية أخرى، بحيث تنمحى رسومه، وتنمحق هويته فى ذات الله، كل أولئك وغيره من المثل العليا، والمبادئ الخلقية، قد انطوت عليه هذه الأقوال التى عرفت بها المعرفة ووصفت فيها حال العارف، كما انطوت عليها سابقاتها فى تحديد معنى الحب، ووصف حال المحب. وهذا يؤدى إلى أن الحب والمعرفة عند صوفية المسلمين الأوائل وسَمنون، حالتان نفسيتان، تصطبغان بصبغة واحدة، وتستلزمان شروطاً واحدة وترميان إلى غاية واحدة، وتكشفان عن حقيقة عليا واحدة، حتى كأن المتحدث بلسان الحال فى إحداهما إنما يعبر عن حقيقة الأخرى، وحتى إن من يقول إنه محب، يمكن أن يقول إنه عارف، ومن يقول إنه عارف، يمكن أن يقول إنه محب، لأن الشروط والدواعى

(١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٤٢.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٣٥.

والأوصاف والموضوع والغاية والطريق فى كل من الحب والمعرفة واحدة.(١)

إذن الحب الخالص دليل المعرفة الصادقة، وهذا الحب هو حب الله فى نفسه وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه وليس فيه حب للذكر أى المادى والمحسوس، بل هو حب للمذكور وحده ولوجه ذى الجلال والإكرام. وفيه تنكشف الحجب حت تتيسر المعاينه، فهو لذلك حب إلهى خالص مجرد من الأغراض والأهواء. (٢) وهذا الحب هو غاية التصوف لأنه يؤدى إلى قذف المعرفة النورانية فى قلب العارف. وهذه المعرفة الذوقية المباشرة لا تتم إلا على أساس المحبة المتبادلة بين العبد وربه. فيصل العبد بهذا الحب إلى حال الفناء عن الآلام.

ويعتبر سَمنون والسرى السقطى لهم الفضل فى ذلك، فيقال أن سمنون والسرى السقطى قد بلغا مقام الأنس بالله إلى حد لو ضرب وجههما بالسيف لما أحس بألمه، فهذا دليل كمال الاستغرق فى حب الله الذى يزيل الإحساس بالنفس بالكلية. كل هذا ينتهى بنا إلى أن سمنون لم يكن زاهداً ولا عابداً فحسب، ولا صوفياً من أصحاب الأذواق والمواجيد فحسب، وإنما كان كذلك صاحب مذهب فى المعرفة الحقة عنده هى التى تتخذ موضوعها الأسمى من الذات الإلهية، كما كانت المحبة الصادقة هى التى تتخذ غايتها القصوى من مشاهدة الحقيقة العليا، بحيث يقيم الرب قلب العبد بين ضياء معرفته، ويذيقه طعم محبته.

(١) د/ محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض، مرجع سابق، ص٢٣٧.
(٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٤٣.

وفى النهاية تأتى الخاتمة التى تحتوى على أهم النتائج التى توصل إليها الباحث حول موضوع "سَمنون المُحب".

فلقد عاش سمنون ببغداد أيام كانت تموج بالنقيضين، البذخ والترف من جهة، ومن الجهة الأخرى الزهد والتقشف. وكانت بغداد آنذاك عامرة برجال التصوف من أمثال الجنيد والسرى السقطى وأبى أحمد القلانسى. وقد صحب سَمنون كل من السقطى والقلانسى ومحمد بن على القصاب، وكانوا جميعاً من جلة مشايخ بغداد وأكابر صوفيتها. لكن أقوال وأحوال سمنون فى المحبة، جعلته يختص من دونهم بلقب المحب.

وهذه المحبة عند سَمنون لم تتخذ أسماء مختلفة وفقاً لدرجات العملية النفسية والأحوال الشعورية التى يمر بها الإنسان، فهى بحق محبة إلهية بعيدة كل البعد عن الجوانب الحسية؛ فهذه المحبة كانت وليس قبلها قبل، فهى ستكون وليس بعدها بعد؛ فهى منزهة عن الدخول فى قيود الزمان والمكان، لها القبلية المطلقة عن كل شئ، والبعدية المطلقة عن كل شئ. إنها فى الأزل الذى هو عنده الحضرة الدائمة المحيطة بالأزمنة كلها إحاطة واحدة؛ فلا ماضى ولا حال استقبال له.

المحبة والمعرفة عند سَمنون لا يتمان بالمجهود بقدر ما يتمان بالفضل من الله. فهناك اتفاق فى الأداة التى يعتمد عليها كل من الحب والمعرفة، والتى هى للحب بمثابة مركز للعاطفة والشعور وللمعرفة بمثابة محل للكشف والمشاهدة: هذه الأداة التى يشترك فيها الحب والمعرفة ليست حاسة من الحواس الظاهرة، ولا عقلاً يعتمد على الدليل والبرهان، إنه القلب "مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ". [الشعراء:٨٩]

المحبة الإلهية هى سر الحياة وجوهرها عند سَمنون: وذلك السر هو إنكار الذات وفناء المحب فى المحبوب، إذ لا يعرف الله المعرفة الحقة، ولا يحب الحب الحقيقى، وفى النفس أدنى شعور بذاتها وبالعالم المحيط بها. ويسمى ذلك بفناء الفناء والتى تطورت على يد "الجنيد" بعد ذلك وسميت بنظرية وحدة الشهود. فلم يبدأ الطريق عند سَمنون بفناء العبد عن صفاته ثم

فناء العبد عن نفسه وصفاته وبقائه بصفات الحق، وإنما بدأ الطريق من منتهاه وهى أهم مراحل الطريق عند سَمنون ويستتبع ذلك فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق. أى تغيب صورة سَمنون ورسمه. فلا يبقى له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً، فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل.

نظرية المحبة الإلهية عند سمنون تمثل التصوف السنى فى أبهى صوره وأرق معانيه، فمحبة سمنون لم تكن محبة حلول واتحاد، لم ولن تعبر عن فناء وجود السوى، وهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير الله. فكلنا اليوم نرى ظاهر براق خداع على طرف اللسان محبة وحلاوة، والباطن خراب وسم قاتل، فنرى ظاهر (القول) يخالف باطن (الاعتقاد)، فهناك من يؤدى فروض الاسلام من صلاة وصوم...إلخ فى الظاهر وفى الباطن تسويف وبطالة وحقد وغل وكراهية، فأين المحبة؟! المحبة عند سَمنون هى تطابق بين الظاهر والباطن، السر والعلن، فينظر كأنه بمثابة النظر لا الناظر؛ ويسمع ويعى كأنه بمثابة السمع والوعى لا السامع والواعى؛ ويتكلم كأنه بمثابة اللسان لا المتكلم، إنه يا سادة عزف عن الدنيا فغمر قلبه نور المحبة الإلهية، فكان ما غاب منه بمنزلة ما يشاهده.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية :

١.ابن الجوزى، صفة الصفوة، تحقيق، خالد مصطفى طرطوس، دار الكتاب العربى، بيروت، ٢٠١٢م.

٢.ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق د/ نور الدين شريبة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م.

٣.ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

٤.ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، جـ١، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، مركز زيدان للتراث والتاريخ، ط١، الإمارات، ٢٠٠٦م.

٥.ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١١، تحقيق حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤م.

٦.أبوالعلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م.

٧.أبوبكر الرازى، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٨.أبونعيم الأصفهانى، حلية الأولياء، تحقيق د/ عبدالله المنشاوى وآخرون، جـ١، مكتبة الإيمان، ط١، المنصورة، ٢٠٠٧م.

٩.أيمن حمدى، قاموس المصطلحات الصوفى، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٠.البخارى، الصحيح، ترقيم د/ محمد فؤاد عبدالباقى، راجعه د/ أحمد محمد معوض، مكتبة فياض للطباعة والنشر، المنصورة، د.ت.

١١.البغدادى، تاريخ بغداد، تحقيق د/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامى، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٢.التفتازانى، مدخل إلى التصوف الاسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط٣، القاهرة، د.ت.

١٣.التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، جـ١، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٤.جامى، نفحات الأنس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
١٥.حسن محمد الشرقاوى، ألفاظ الصوفية ومعانيها، دار المعرفة الجامعية، ط٢، الاسكندرية، د.ت.
١٦.زكريا إبراهيم، مشكلة الحب، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.
١٧.زكى مبارك، التصوف الإسلامى، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
١٨.السلمى، طبقات الصوفية، تحقيق د/ أحمد الشرباصى، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م.
١٩.الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ١، المطبعة العامرة، القاهرة، ١٣١٥هـ.
٢٠.طه عبدالباقى سرور، التصوف الإسلامى، مؤسسة هنداوى، للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٢٠م.
٢١.الطوسى، اللمع، ضبطه وصححه، كامل مصطفى الهنداوى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٢٢.عبدالقادر الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مطبعة البابى الحلبى، مصر، د.ت.
٢٣.الغزالى، إحياء علوم الدين، جـ١٠، دار الكتاب الحديث، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٢٤.فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، تحقيق وترجمة د/ منال اليمنى عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٢٥.القشيرى، الرسالة، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت.
٢٦.القشيرى، لطائف الإشارات، المجلد الأول، تحقيق/السيد عبدالغنى زايد، دار الغد الجديد، ط١، القاهرة، د.ت.
٢٧.الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أرثر جون أربرى، الناشر مكتبة الخانجى، ط٢، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢٨.محمد جلال شرف، التصوف الإسلامى مدارسه ونظرياته، دار العلم العربية، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٩.محمد على أبوريان، الحركة الصوفية فى الإسلام، دار المعرفة الجامعية، ط٢، الاسكندرية، ٢٠٠٠م.
٣٠.محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض والحب الإلهى، دار المعارف، ط٢، القاهرة، د.ت.
٣١.مسلم، الصحيح، م٨، جـ١٦، بشرح النووى، تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقى، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.
٣٢.المكى، قوت القلوب، تحقيق د/ عبدالحميد مدكور وآخرون، جـ٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٣٣.المناوى، الكواكب الدرية، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت.
٣٤.الهجويرى، كشف المحجوب، تعليق د/ سعاد عبدالهادى قنديل، تقديم د/ بديع جمعه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٣٥.الهروى، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٦.يوسف زيدان، الطريق الصوفى، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١م.
٣٧.يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م.

سابعاً :
أصول اللغة